



جامعة زيان عاشور – الجلفة
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية
قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

دروس في مادة : تيارات فكرية كبرى
موجهة لطلبة السنة أولى علوم اجتماعية
- جذع مشترك -

إعداد : د/ سليمان عبد العزيز

الموسم الجامعي : 2026/2025

مقدمة :

يشكل مقياس تيارات فكرية كبرى أحد المقاييس الأساسية الموجهة لطلبة السنة الأولى جذع مشترك في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث يندرج ضمن مسار التكوين القاعدي الذي يهدف إلى تزويد الطالب بالأدوات المفاهيمية والمعرفية الضرورية لفهم نشأة الفكر الإنساني وتطوره، واستيعاب الخلفيات النظرية التي قامت عليها مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة، وقد جاء إدراج هذا المقياس في إطار الإصلاحات البيداغوجية التي عرفها التكوين الجامعي للموسم الجامعي (2023-2024)، والتي سعت إلى إعادة تنظيم وحدات التعليم بما يضمن تكوينًا متوازنًا يجمع بين المعارف الأساسية والمنهجية والاستكشافية والأفقية، قصد بناء قاعدة معرفية مشتركة تمكن الطالب من الإلمام بالمفاهيم المركزية التي تشترك فيها تخصصات علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، وعلوم التربية، والفلسفة.

I- أهمية المقياس ضمن التكوين القاعدي :

ينطلق هذا المقياس من قناعة بيداغوجية مفادها أن فهم العلوم الإنسانية والاجتماعية لا يمكن أن يتحقق دون الإحاطة بالسياقات الفكرية الكبرى التي نشأت داخلها هذه العلوم. فالمفاهيم والنظريات العلمية ليست معطيات معزولة، بل هي نتاج تحولات فكرية عميقة شكلت عبر التاريخ ما يُعرف بالتيارات الفكرية.

ومن ثم، يهدف المقياس إلى:

- تعريف الطلبة بأهم الاتجاهات الفكرية التي أسهمت في بناء المعرفة الإنسانية.
- تنمية القدرة على الربط بين الفكر الفلسفي وتطور العلوم الاجتماعية.
- تمكين الطالب من إدراك الخلفيات النظرية للمناهج العلمية المعاصرة.
- تعزيز التفكير النقدي من خلال مقارنة التصورات الفكرية المختلفة.

وبهذا المعنى، لا يقتصر المقياس على عرض أفكار فلسفية مجردة، بل يسعى إلى إبراز الفكر باعتباره نشاطًا تاريخيًا وثقافيًا مرتبطًا بتحولات المجتمع والإنسان.

ثانيًا: موقع المقياس داخل الهيكل البيداغوجية

يأتي مقياس تيارات فكرية كبرى ضمن وحدات التعليم الأساسية التي ترافق مواد مدخل إلى علم النفس، ومدخل إلى علم الاجتماع، ومدخل إلى الأنثروبولوجيا، ومدخل إلى الفلسفة وعلوم التربية، وهو ما يعكس طابعه التكاملي؛ إذ يعمل على توفير الإطار النظري العام الذي تنتظم داخله هذه المعارف، كما ينسجم إدراجه مع التوجه البيداغوجي الجديد الذي يهدف إلى الانتقال من التلقين المعرفي الجزئي إلى بناء رؤية شمولية تمكن الطالب من فهم الروابط بين الحقول المعرفية المختلفة، وإدراك وحدة الإشكالات الإنسانية رغم تنوع تخصصاتها.

يركّز هذا المقياس على دراسة أبرز التيارات الفكرية التي أثّرت في مسار الفكر الإنساني الحديث والمعاصر، من خلال تحليل أسسها النظرية ومبادئها المعرفية وسياقاتها التاريخية. ويشمل ذلك التعرف إلى الاتجاهات الفكرية الكبرى التي أسهمت في صياغة تصورات الإنسان والعالم والمعرفة، مثل :

التيار العقلاني - التيار التجريبي - التيار المثالي - التيار المادي - التيارات البنيوية والوظيفية - التيار الماركسي - التيار التطوري - التيار الوجودي - التحليل النفسي - التيار السلوكي - التيار الظاهراتي - التيار البراغماتي.

ولا تُدرس هذه التيارات بوصفها أنساقًا مغلقة، بل باعتبارها محاولات فكرية لفهم الإنسان والواقع، نشأت استجابة لإشكالات تاريخية ومعرفية محددة.

وبخصوص المنهج البيداغوجي المعتمد، يعتمد تدريس المقياس مقارنة تحليلية تاريخية تقوم على:

1. تقديم السياق التاريخي لظهور التيار الفكري.
2. عرض مفاهيمه الأساسية ومبادئه النظرية.
3. التعرف إلى أبرز ممثليه وأعمالهم الفكرية.

4. تحليل إسهاماته في تطور العلوم الإنسانية.

5. تقديم قراءة نقدية موجزة تكشف حدوده وإمكاناته.

ويهدف هذا المنهج إلى تدريب الطالب على الانتقال من الفهم الوصفي إلى التحليل المفاهيمي، ومن تلقي المعرفة إلى مناقشتها وتقويمها.

و أخيرا، فإن الأهداف التعليمية للمقياس تتركز كلها في تمكين الطالب من:

- فهم طبيعة التيارات الفكرية بوصفها حركات تاريخية للأفكار.
- التمييز بين التيار الفكري والمذهب والمدرسة.
- اكتساب رصيد مفاهيمي أولي في تاريخ الفكر.
- تطوير مهارات القراءة والتحليل والمقارنة الفكرية.
- بناء وعي نقدي يسمح بفهم التحولات الفكرية المعاصرة.

التعريف بالمادة

- عنوان الليسانس: علم الاجتماع العام
- السداسي: الثاني
- اسم الوحدة: تعليم أساسية
- اسم المادة: تيارات فكرية كبرى
- الرصيد: 05
- المعامل: 02
- الحجم الساعي خلال السداسي: 45 ساعة
- الحجم الساعي الأسبوعي: 1سا و30د (محاضرة) 1سا و30د (أعمال موجهة)
- طريقة التقييم: مراقبة مستمرة (40%) + امتحان (60%)
- أهداف التعليم:
 - (1) تمكين الطالب من فحص المنطلقات النظرية للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية.
 - (2) إدراك المحددات الأساسية للمواقف الفكرية تنوعه.
- ✓ **المعارف المسبقة المطلوبة:**
 - (1) تاريخ الفكر.
 - (2) الاطلاع على أهم الإشكاليات الفكرية الاجتماعية.
 - (3) الخصائص الجوهرية للتفكير الإنساني.
- ✓ **القدرات المكتسبة:**
 - (1) القدرة على تصنيف المواقف الفكرية.
 - (2) القدرة على نقد المواقف و أسسها النظرية.
 - (3) القدرة على استنباط الموجهات المضمرة و المعلنة في البحوث و الدراسات.
- ✓ **محتوى المادة:**
 - (1) مدخل مفاهيمي (التيار. المدرسة. المذهب....)
 - (2) التيار المثالي
 - (3) التيار العقلاني
 - (4) التيار التجريبي
 - (5) التيار المادي
 - (6) التيارات البنيوية
 - (7) التيار الوظيفي
 - (8) التيار الماركسي
 - (9) التطورية الداروينية
 - (10) التيار الوجودي
 - (11) تيار التحليل النفسي
 - (12) التيار السلوكي
 - (13) التيار البراغماتي
 - (14) التيار الظواهري
 - (15) التيار التأويلي
- ✓ **المراجع:**
 1. أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت ، باريس.
 2. جامعة من الأساتذة السوفييات، المادية الديالكتيكية، تر: بدر الدين السباعي و آخرون، دار الجماهير.
 3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

4. جورج غوسدوروف، أصول التأويلية، تر: فتحي إقزو، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الدار البيضاء، ط1، 2018.
5. جون كوتنهام، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، د.ت.
6. جون ليتشه، خمسون مفكرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2008.
7. روبرت ودورث، مدارس علم النفس المعاصر، ترجمة كمال دسوقي.
8. ساخاروف، من فلسفة الوجود إلى البنيوية، تر: أحمد برقلاوي، دار دمشق، ط1، 1984.
9. عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية المعاصرة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة
10. فؤاد كامل و آخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
11. كرنزمان بيتر و آخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2001.
12. لينين، المادية و المذهب النقدي التجريبي، دار التقدم، موسكو.
13. مصطفى النشار: أعلام الفلسفة في الشرق والغرب: أفلاطون رائد المثالية، مكتبة دار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2018.
14. وليم جيمس، البراغماتية، تر: وليد شحادة، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014.

فهرس المحتويات

المحتوى	رقم الصفحة
مدخل مفاهيمي (التيار. المدرسة. المذهب)	07
التيار المثالي	09
التيار العقلاني	11
التيار التجريبي	13
التيار المادي	16
التيارات البنيوية	18
التيار الوظيفي	21
التيار الماركسي	25
التطورية الداروينية	28
التيار الوجودي	31
تيار التحليل النفسي	34
التيار السلوكي	37
التيار البراغماتي	39
التيار الظواهري	41
التيار التأويلي	44
خلاصة عامة	47
قائمة المصادر والمراجع	48

مدخل مفاهيمي (التيار. المدرسة. المذهب)

تُستعمل مصطلحات التيار الفكري والمذهب الفكري والمدرسة الفكرية بكثرة في الدراسات الفلسفية والإنسانية، وغالبًا ما يقع خلط بينها رغم اختلاف دلالاتها اللغوية والأصلية. لذلك يقتضي التحليل العلمي العودة أولاً إلى الجذور اللغوية لهذه المفاهيم في المعاجم العربية، قبل بيان تطورها الاصطلاحي في الفكر الحديث. أولاً: التعريف اللغوي للتيار الفكري

1- معنى التيار لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور : "والتَّيارُ الموج ، وخص بعضهم به موج البحر ، وهو آذيه وموجه ، قال عدي بن زيد عَفَّ المكاسب ما تكدي حسافته كالبحر يقذف بالتَّيار تياراً، (...) وفي حديث علي - كرم الله وجهه - : ثم أقبل مزبداً كالتيار ، قال ابن الأثير : هو موج البحر ولجته. والتيار فيعال من تار يتور مثل القيام من قام .¹، وهو تخريج يبدو بعيداً عن ما أصبح يعنيه المصطلح في اللغة الحديثة ومعاجم اللغة والمفاهيم في العلوم المعاصرة، ومع ذلك فهو يمنح مصطلح التيار صفة الاندفاع والتوجه المقصود لهدف معين، وهذا ما يقربه للمفهوم الحديث ولكن المعجم الوسيط يحاول مقارنة هذا الاستخدام الحديث بشكل أكبر، فنجده يقول : " التيار هو حركة سطحية في ماء المحيط تتأثر باتجاهات الرياح، وتنقل المياه الدافئة إلى المناطق الباردة وبالعكس. (مج) و شدة جريان الماء، في (علم الطبيعة) : سيال كهربائي يجري في جسم موصل للكهرباء."².

2- معنى التيار اصطلاحاً :

انطلاقاً من التعريفات اللغوية، و إذا أردنا نقل المفهوم من المجال الطبيعي (جريان الماء أو تيار الكهرباء)، فإننا نعرف التيار الفكري على أنه حركة فكرية متدفقة تسير وتجري وتندفع في اتجاه واحد، وهذا التخريج يساعدنا في ضبط مفهوم التيار الفكري (Intellectual Movement / Courant de pensée) بوصفه : حركة متواصلة من الأفكار والتصورات تنتشر داخل مجتمع أو حقبة تاريخية في اتجاه عام مشترك دون أن تخضع لنظام نظري مغلق.

وهذا ما نجد تأكيداً في المعاجم الاصطلاحية فنجد معجم "لاروس" (Larousse Dictionnaire) يحدد بدق مفهوم التيار (Courant) بالمعنى الفكري، بوصفه : "نزعة جماعية توجه الفكر أو الإبداع"³. انطلاقاً من الأصل اللغوي والأصل المعجمي يمكننا تحديد خصائص مفهوم التيار الفكري كالتالي:

- 1- الطابع الحركي : التيار يدل على الصيرورة لا الثبات؛ أي إن الأفكار داخله قابلة للتطور.
- 2- الاتساع : يشمل مفكرين متعددين قد تختلف آراؤهم الجزئية مع اشتراكهم في روح عامة.
- 3- الارتباط بالسياق التاريخي : كما يتشكل التيار المائي وفق مجرى الأرض، يتشكل التيار الفكري وفق الظروف الاجتماعية والثقافية.
- 4- النسقية والشمولية : بحيث يحاول أن يقدم تصوراً شاملاً للعالم والإنسان المعرفة انطلاقاً من مبدأ واحد.

التيار الفكري إذاً هو مجموعة من الأفكار والتصورات والمبادئ النظرية التي يشترك فيها عدد من المفكرين أو الفلاسفة خلال فترة تاريخية معينة، وتتخطى ضمن رؤية مشتركة للعالم والإنسان والمعرفة والمجتمع. ويعبر التيار الفكري عن اتجاه عام في التفكير يسعى إلى تفسير الواقع أو نقده أو إعادة بنائه انطلاقاً من أسس فلسفية أو علمية أو أيديولوجية محددة، ولا يرتبط التيار الفكري بشخص واحد فقط، بل يتشكل عبر تفاعل جماعي بين مفكرين ومدارس فكرية تتقاطع في مفاهيمها الأساسية، حتى وإن اختلفت في بعض التفاصيل أو المناهج.

3- معنى المذهب لغة :

في المعاجم العربية المعتمدة نجد : "والمذهبُ : المعتقد الَّذِي يُذهَبُ إليه، وذهبَ فلان لذهبه أي لمذهبه الذي يذهبُ فيه"¹، ويعني بوضوح تلك الفكرة والمعتقد الراسخ الذي يدور الإنسان حوله ويبنى عليه شؤون دنيا ومآله، ويغلب على المصطلح الاستخدام الديني.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، المجلد الرابع (ر)، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405 هجري، ص 97.

² - المعجم الوسيط، كجمع اللغة العربية، ج1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط04، 2004، ص 91.

³ - Le petit larousse illustré, Isabelle Jeuge-Maynard, Paris [France], Éditions Larousse, 2007, p : 303.

4- معنى المذهب اصطلاحاً :

نجد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا تعريف المذهب (System) كالتالي : " المذهب الطريقة، والمعتقد الذي يذهب إليه. والمذهب عند الفلاسفة مجموعة من الآراء والنظريات الفلسفية ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً منطقيّاً حتى صارت ذات وحدة عضوية متفكّة ومتماسكة. والمذهب أعمّ من النظرية، ويغلب على أصحاب المذاهب أن يرجعوا نظرياتهم وآراءهم إلى عدد كبير من المبادئ، من غير أن يطابقوا بينها وبين شروط الواقع مطابقة تامة."²

المذهب إذا هو طريقة تفكير أو مجموعة أفكار يؤمن بها شخص أو فيلسوف، وفي الفلسفة هو نظام من الآراء والنظريات المرتبطة ببعضها بشكل منظم، بحيث تكوّن رؤية فكرية واحدة متماسكة. المذهب أوسع من النظرية لأن النظرية فكرة واحدة، أما المذهب فهو مجموعة أفكار ومبادئ كثيرة تشكل تصوّراً كاملاً عن العالم أو الإنسان أو المعرفة، حتى لو لم تطابق الواقع تماماً.

5- معنى المدرسة لغة : تبدو كلمة (مدرسة) دخيلة على اللسان العربي، وهي كلمة تمّ تصحيفها عن أصلها العبراني (مدراش) وهو البيت الذي تدرس فيه التوراة، فأصبحت مدراس ومدرسة، ونجد في لسان العرب : "المدراس : الموضع الذي يدرس فيه القرآن، ومنه مدراس اليهود"³. وهنا يتضح من اللفظ وجود مكان ثابت هدفه هو تدارس وقراءة نص ديني غالباً.

6- معنى المدرسة اصطلاحاً :

نجد في المعجم الفلسفي مصطلح المدرسة (Schoole) : " المدرسة بالمعنى الضيق جماعة من الفلاسفة لهم مذهب واحد، ونظام واحد، ومكان واحد للاجتماع، ورئيس أو عدة رؤساء يتعاقبون على التعليم. والمدرسة بالمعنى الواسع جماعة من العلماء أو الفلاسفة ينتسبون إلى مذهب واحد، أو يدافعون عن مبدأ أساسي واحد."⁴

مع هذا التعريف يتضح أكثر مفهوم المدرسة بالمعنى الحديث، حيث يتم التأكيد على المكان الثابت، والمعلم أو الرئيس الذي يبتكر الأفكار ويعلمها للطلبة، أو يكمل دروس المعلمين السابقين.

5- الخلاصة :

نخلص في الأخير إلى أن التيار والمذهب والمدرسة مفاهيم متقاربة لكنها تختلف في درجة التنظيم الفكري. فالتيار هو اتجاه فكري عام يضم أفكاراً متشابهة دون أن يكون له نسق محدد أو قواعد صارمة. أما المذهب فهو أكثر تماسكاً وتنظيماً، إذ يشكّل منظومة من المبادئ والنظريات المرتبطة منطقيّاً ضمن رؤية فلسفية واضحة. في حين تشير المدرسة إلى جماعة من المفكرين أو التلاميذ يجمعهم تعليم مشترك أو انتماء إلى أستاذ أو مؤسسة فكرية معينة. لذلك يمكن القول إن التيار أوسع وأقلّ تحديداً، والمذهب أكثر نسقية، والمدرسة إطار بشري أو تاريخي لانتقال الأفكار. بهذه الصورة تدرج المفاهيم من الاتجاه العام إلى النسق الفكري ثم إلى الجماعة العلمية.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، المجلد الأول (أ-ب)، مرجع سابق، ص 394.

² - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 361.

³ - لسان العرب، ابن منظور، المجلد (ج)، مرجع سابق، ص

⁴ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 358-359.

التيار المثالي – المثالية (Idealism)

مقدمة :

يُعدّ التيار المثالي أحد أهم التيارات الفكرية الكبرى في تاريخ الفلسفة الغربية، إذ مثّل محاولة فلسفية عميقة لإعادة التفكير في طبيعة الواقع والمعرفة والعلاقة بين الفكر والوجود. وقد نشأ هذا التيار من التساؤل الأساسي: هل الواقع مستقل عن الفكر أم أن العقل أو الوعي هو الأساس الحقيقي للوجود؟ ومن خلال هذا السؤال تشكّلت اتجاهات فلسفية متعددة رأت أن الحقيقة النهائية لا تُدرك بالحواس وحدها، بل بالعقل أو الروح أو الوعي. لذلك احتلت المثالية مكانة مركزية في تاريخ الفلسفة، بدءاً من الفلسفة اليونانية القديمة وصولاً إلى الفلسفة الألمانية الحديثة وما بعدها، حيث أثّرت في نظرية المعرفة والأخلاق والسياسة وفلسفة الفن والدين.

1- تعريف المثال (Idea) / المثالي (Ideal) اصطلاحاً :

المثال أو المثالي في مقابل الواقع (Reality) والواقعي، ويعرف المعجم المثال كالتالي : "المثال صورة الشيء، الذي تمثّل صفاته، والقالب أو النموذج الذي يُقدّر على مثاله، والجزئي الذي يُذكر لإيضاح القاعدة، وإيصالها إلى فهم المتعلم. والمثال عند (أفلاطون) صورة مجردة، وحقيقة معقولة، أزلية ثابتة، ثابتة بذاتها، لا تتغير ولا تندثر، لا تفسد، قال الفارابي : إن أفلاطون في كثير من أقواله يؤول إلى أن للموجودات صوراً مجردة في عالم الإله، وربما سُميت بالمثل الإلهية، وأنها لا تفسد ولا تتغير ولا تندثر، ولكنها باقية، وأن الذي يندثر ويفسد إنما هو هذه الموجودات التي هي كائن¹."

ويُعرّف المثالي أيضاً بأنه : " وصف لكل ما هو كامل من نوعه (...) ما يتصف بالسمو الفني، أو الأخلاقي، أو الأخلاقي، أو العقلي (...) وصف لما يتصل بالفكرة والتصور²."

2- تعريف التيار المثالي :

التيار المثالي كما يبدو هو اتجاه فلسفي يرى أن الفكر أو العقل أو الوعي يمثل الأساس الحقيقي للوجود، وأن الواقع لا يمكن فهمه إلا من خلال البنية العقلية أو الروحية التي تمنحه معناه. وبعبارة أخرى، تعطي المثالية الأولوية للذهن على المادة، وترى أن العالم ليس مجرد موضوع مادي مستقل، بل يرتبط إدراكه ووجوده بالنشاط العقلي.

2- مبادئ الفلسفة المثالية :

1. أسبقية العقل أو الفكرة – من حيث الوجود والمعرفة – على المادة : ترى الفلسفات المثالية أن الفكر أو العقل هو الأصل الذي تقوم عليه الأشياء، وأن المادة ليست الأساس الأول للوجود بل نتيجة أو مظهر للفكرة. فالحقيقة في نظرهم ذات طبيعة عقلية أو روحية قبل أن تكون مادية. لذلك يُفهم العالم انطلاقاً من المبادئ العقلية لا من الواقع المادي وحده.
2. اعتبار المعرفة العقلية أسمى من المعرفة الحسية : تؤكد المثالية أن الحواس قد تخدع الإنسان لأنها تنقل صوراً متغيرة وغير ثابتة عن العالم، بينما يمنح العقل معرفة يقينية تقوم على المفاهيم والقوانين الكلية. فالمعرفة الحسية تمثل مرحلة أولية، أما المعرفة العقلية فهي التي تكشف جوهر الأشياء ومعانيها الحقيقية.
3. فهم الواقع باعتباره بناءً عقلياً أو روحياً : لا يُنظر إلى الواقع في المثالية باعتباره مجرد وجود مادي مستقل، بل بوصفه مرتبطاً بالعقل أو الروح التي تمنحه المعنى والتنظيم. فالواقع يصبح مفهوماً من خلال

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 335.

² - المرجع نفسه، ص 336.

الفكر الذي يفسره ويمنحه وحدة واتساقاً. ومن ثم فإن العالم ليس معطى خاماً، بل واقعاً مُدرّكاً عبر الوعي.

4. **التأكيد على دور الذات العارفة في تشكيل العالم المدرك :** تشدد المثالية على أن الذات العارفة ليست متلقية سلبية للمعرفة، بل عنصر فاعل يشارك في بناء التجربة وفهم العالم. فالعقل ينظم المعطيات الحسية ويمنحها معنى من خلال مفاهيمه وأطره الفكرية. لذلك يصبح العالم كما نعرفه مرتبطاً بطريقة إدراك الإنسان له.¹

غير أن المثالية لم تكن مذهباً واحداً، بل تياراً واسعاً تفرّع إلى أشكال متعددة عبر التاريخ، ويمكن فهم اتجاهاتها الكبرى من خلال أهم مفكراتها في تاريخ الفلسفة.

3- أهم الفلاسفة المؤسسين للتيار المثالي:

• أفلاطون (427-347 ق.م) :

يعد أفلاطون المؤسس الأول للمثالية في الفلسفة. يمثل المثالية الموضوعية، إذ يرى أن الحقيقة الحقيقية لا توجد في العالم الحسي المتغير، بل في عالم المثل الثابتة الكاملة. فالأشياء التي نراها في الواقع ليست إلا صوراً غير كاملة لتلك المثل، أما المعرفة الحقيقية فهي المعرفة العقلية بهذه الحقائق الثابتة.²

• رينيه ديكارت (1596-1650) :

يمثل ديكارت بداية المثالية الحديثة، ويمكن وصف موقفه بـ المثالية العقلانية أو الاشكالية. فقد جعل الفكر أساس اليقين الفلسفي، واعتبر أن أول حقيقة يمكن التأكد منها هي وجود الذات المفكرة أو (الأنا المفكرة)³، ومن هنا أصبحت الذات والعقل نقطة الانطلاق في فهم العالم.

• إيمانويل كانط (1724-1804) :

يمثل كانط المثالية النقدية أو الترانسندنتالية. فقد رأى أن العقل لا يدرك الأشياء كما هي في ذاتها، بل كما تظهر لنا من خلال مقولات عقلية مثل الزمان والمكان ومقولة الفهم بالخصوص، والتي تمثل ملكة القواعد أو المقولات المسؤولة عن تعقل معطيات الحواس⁴. أي أن العقل يشارك في تشكيل التجربة التي نعرف بها العالم.

• فريدريك هيغل (1770-1831) :

يمثل هيغل المثالية المطلقة، حيث يرى أن الواقع كله تعبير عن العقل أو الروح المطلقة، وأن التاريخ يمثل تطور الوعي الإنساني عبر صراع الأفكار وتطورها⁵.

4- خلاصة :

يُعدّ التيار المثالي أحد أهم التيارات الفلسفية في تاريخ الفكر الغربي، لأنه نقل مركز الاهتمام من العالم المادي الخارجي إلى العقل والوعي والروح باعتبارها أساس فهم الحقيقة. فقد أكد أن المعرفة لا تقوم فقط على التجربة الحسية، بل على النشاط العقلي الذي يمنح العالم معناه وتنظيمه، مما أسهم في تعميق البحث في طبيعة المعرفة والذات الإنسانية.

تكمن أهمية المثالية في أنها أسست لنقاشات فلسفية كبرى حول العلاقة بين الفكر والواقع، والعقل والتجربة، والذات والعالم، وهي قضايا أصبحت محورية في الفلسفة الحديثة. كما ساعدت على تطوير مفاهيم الحرية والوعي والأخلاق، إذ ربطت قيمة الإنسان بقدرته العقلية والروحية لا بمجرد وجوده المادي، وقد كان تأثير التيار المثالي واسعاً في الفكر الغربي؛ إذ مهّد لظهور الفلسفة النقدية الألمانية، وأثر في التيارات اللاحقة مثل الفينومينولوجيا والوجودية والفلسفات الإنسانية، بل وحتى في الاتجاهات التي عارضته كالمادية والوضعية.

¹ - رواد المثالية في الفلسفة الغربية، عثمان أمين، دار المعارف، مصر، 1967، ص 8-9.

² - أفلاطون رائد المثالية، مصطفى النشار، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2018، ص 41-42.

³ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 338.

⁴ - رواد المثالية في الفلسفة الغربية، عثمان أمين، مرجع سابق، ص 96.

⁵ - هيغل، أو المثالية المطلقة، زكريا إبراهيم، مكتب مصر، القاهرة، 1910، ص 416-417.

التيار المادي – المادية (Materialism)

مقدمة :

يُعدّ التيار المادي من أهم التيارات الفلسفية التي حاولت تفسير العالم والإنسان انطلاقاً من الطبيعة المادية للوجود، حيث يرى أن المادة هي الأصل الأول لكل ما هو موجود، وأن الظواهر العقلية والروحية يمكن فهمها باعتبارها نتاجاً للتطور الطبيعي. وقد ارتبط ظهور المادية بتقدم العلوم الطبيعية وسعي الفلاسفة إلى تفسير الكون تفسيراً علمياً بعيداً عن التفسيرات الميتافيزيقية.

1- تعريف المادة (Matter)/ المادي (Material) اصطلاحاً :

تعني المادة في الاصطلاح الفلسفي " المعنى المقابل للصورة العقلية (أرسطو)، مقابلة للصورة من جهة وللفكر من جهة أخرى (ديكارت)، هي معطيات التجربة الحسية من جهة ماهي مستقلة عن العقل"¹، و إذا فالمادة هي الواقع الملموس والموجود مستقلاً عن الوعي الإنساني، أي كل ما له وجود خارج الوعي، سواء أدركه الإنسان أم لم يدركه. وتشمل الطبيعة بكل ظواهرها الفيزيائية والبيولوجية، وتُعد أساس تفسير الوجود عند الفلاسفة الماديين. "المذهب المادي هو المذهب الذي يفسر كل شيء بالأسباب المادية"²، وعليه فهو مذهب ينطلق من المادة/الطبيعة، ولا يؤمن بأي جوهر آخر يمكن أن يحدد المعنى والحقيقة في هذا الوجود، مثل الروح أو العقل بالمعنى المثالي، وكذلك فإن المادية لا تكتفي بدراسة العالم الفيزيائي، بل تمتد لتفسير الحياة النفسية والإنسانية والأخلاقية ضمن إطار طبيعي خالص.

1- لمحة تاريخية عن الفلسفة المادية :

• أبيقور (341-270 ق.م): المادية القديمة

تمثل فلسفة إبيقور مرحلة ميكرة وحاسمة في تشكل التصور المادي للعالم داخل الفلسفة اليونانية القديمة. فقد اعتبر أن الكون يتكوّن من ذرات تتحرك في الفراغ وفق قوانين طبيعية ضرورية، دون تدخل قوى فوق طبيعية أو غايات ميتافيزيقية. وبذلك قدّم تفسيراً طبيعياً للوجود يحرر الإنسان من الخوف من الآلهة ومن القلق المرتبط بالموت. كما ربط المعرفة بالطبيعة الإنسانية، وجعل السعادة قائمة على تحقيق الطمأنينة النفسية عبر فهم قوانين الطبيعة، مما أسّس لمادية أخلاقية ترى في التحرر العقلي أساس الحياة السعيدة.

• بول هنري دولباخ (1723-1789): المادية الحديثة

شهد العصر الحديث تطوراً جديداً للمادية مع فلاسفة التنوير، ويُعد دولباخ أحد أبرز ممثليها. فقد دافع عن رؤية طبيعية شاملة تجعل الإنسان جزءاً لا ينفصل عن النظام الطبيعي، وتخضع أفكاره وسلوكاته للحتمية نفسها التي تحكم الظواهر الفيزيائية. وفي كتاباته الفلسفية، سعى إلى نقد التفسيرات الدينية والميتافيزيقية للعالم، مؤكداً أن العقل والعلم كفيلاّن بتفسير الظواهر دون الحاجة إلى فرضيات غيبية. وهكذا تحولت المادية لديه إلى مشروع تحرري يهدف إلى تأسيس معرفة عقلانية قائمة على قوانين الطبيعة وحدها³.

• كارل ماركس (1818-1883) وفريدريك إنجلز (1820-1895): المادية الجدلية

مع ماركس وإنجلز بلغت المادية مرحلة جديدة من التطور النظري، إذ لم تعد المادة تُفهم بوصفها جوهرًا ساكنًا، بل باعتبارها واقعاً تاريخياً متحركاً يتغير عبر التناقض والضرورة. فقد ربطا الطبيعة بالتاريخ والمجتمع، واعتبرا أن التحولات الاجتماعية والفكرية تنشأ من البنية المادية للحياة الإنسانية. وتقوم المادية الجدلية على فكرة

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 307-308.

² - المرجع نفسه، ص 309.

³ - المرجع نفسه، ص 309.

أن التغير يحدث نتيجة صراع داخلي يؤدي إلى انتقالات نوعية تنبثق من تراكمات كمية، مما جعل المادية إطارًا لتفسير التاريخ الإنساني وليس الطبيعة فقط.

• أنواع المادية : من التصور الكلاسيكي إلى التصور الجدلي

يميز الفكر الفلسفي بين نمطين رئيسيين من المادية يعكسان تطورها التاريخي. فالمادية الكلاسيكية تنظر إلى المادة باعتبارها أساس الوجود، لكنها تميل إلى تصورهما وفق نموذج ميكانيكي ثابت نسبيًا، حيث تُفهم الطبيعة كنسق تحكمه قوانين جامدة. أما المادية الجدلية فتؤكد الطابع الديناميكي للمادة، وترى أن الواقع في حركة مستمرة وأن التغير والتطور يشكلان خاصيته الأساسية. ويعبر هذا الانتقال عن تحول عميق في الفكر الفلسفي، من فهم ألي للطبيعة إلى تصور تاريخي يرى العالم عملية صيرورة دائمة¹.

2- مبادئ الفلسفة المادية :

1. وحدة الطبيعة : تركز الفلسفة المادية على الإقرار بأن الطبيعة كلٌ متكامل ومتصل، لا يعرف الانقطاع أو الفراغ. فهي نسق واحد شامل، وكل جزء فيها مرتبط ببقية الأجزاء ارتباطاً بنيوياً، بحيث لا يمكن تصور وجود كيانات منفصلة أو فجوات حقيقية داخلها.
2. قانونية الطبيعة والسببية : تؤمن المادية بأن الطبيعة تخضع لنظام سببي صارم؛ فكل ظاهرة سبب محدد يؤدي بالضرورة إلى نتيجة معينة. وتظل العلاقة بين السبب والنتيجة ثابتة، بحيث تتكرر النتائج نفسها متى تكررت الشروط ذاتها في الزمان والمكان.
3. خضوع الطبيعة لقوانين ثابتة عامة : ترى الفلسفة المادية أن الكون بأسره محكوم بقوانين واحدة شاملة ومنظمة، تعمل بضرورة وآلية دقيقة تشبه القوانين الرياضية في وضوحها وثباتها، ولذلك لا مجال فيها للاستثناءات أو الخصوصيات الخارجة عن النظام الطبيعي العام.
4. الحركة خاصية مادية ذاتية : تفترض المادية أن الطبيعة في حركة دائمة تنبع من ذاتها، وأن الحركة ليست نتيجة قوة خارجية مفارقة، بل خاصية أصيلة في المادة نفسها، أي أن التغير والتحول جزء من بنيتها الداخلية.
5. نفي الغائية في العالم الطبيعي : تنكر الفلسفة المادية وجود غايات أو أهداف مسبقة في الطبيعة، فالعالم لا يتحرك وفق قصد أو غرض نهائي. كما ترفض اعتبار الإنسان مركز الكون أو كائناً ذا امتياز خاص، إذ يخضع — مثل سائر الكائنات — للقوانين الطبيعية نفسها.
6. اكتفاء الطبيعة بذاتها : تؤكد المادية أن الطبيعة مكتفية بنفسها ولا تحتاج إلى مبدأ خارجي يفسرها أو يتجاوزها (الإله)؛ فكل ما يحدث داخل العالم يمكن تفسيره انطلاقاً من قوانينه الداخلية، لأن الطبيعة تحمل في ذاتها أسباب وجودها وحركتها وتنظيمها².

3- خلاصة :

يرى التيار المادي أن المادة هي أساس الوجود والواقع كله، وأن العالم يمكن تفسيره اعتماداً على القوانين الطبيعية دون اللجوء إلى تفسيرات غيبية أو ميتافيزيقية. وقد تطورت المادية تاريخياً من التصورات الذرية في الفلسفة اليونانية القديمة، إلى المادية العقلانية في عصر الأنوار، ثم إلى المادية الجدلية التي ربطت الطبيعة بالتاريخ والمجتمع. ويؤكد هذا التيار أن الإنسان جزء من الطبيعة وأن الفكر والوعي مرتبطان بالشروط المادية للحياة، مما جعله أحد أهم الاتجاهات التي أثرت في تطور العلوم والفكر النقدي الحديث.

¹ - المادية الديالكتيكية، مجموعة أساتذة سوفيات، فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، بدون تاريخ، ص 179.

² - الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 02، 2007، ص 15-16.

التيار العقلاني – العقلانية (Rationalisme)

مقدمة :

يُعدّ التيار العقلاني أحد أهم الاتجاهات الكبرى في تاريخ الفلسفة الحديثة، إذ جعل من العقل المصدر الأساسي للمعرفة وأداة فهم العالم والإنسان. وقد ظهر هذا التيار خاصة في أوروبا خلال القرن السابع عشر، في سياق التحولات العلمية الكبرى التي صاحبت الثورة العلمية، حيث سعى الفلاسفة إلى تأسيس معرفة يقينية تقوم على الوضوح والبرهان العقلي بدل الاعتماد على الحواس أو السلطة التقليدية.

1- معنى عقل (Reason) / عقلائي (Rasionalisme) اصطلاحاً :

في المعجم الفلسفي نجد أن " الفلاسفة يطلقون العقل على المعاني التالية : جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها (الكندي)، والفارابي يقول أن العقل جوهر بسيط مقارن للمادة، يبقى بعد موت البدن، وهو جوهر أحدي، وهو الإنسان على الحقيقة. (...) و هو النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله : أنا. (...) والعقل قوة النفس التي يحصل بها تصور المعاني، وتأليف القضايا و الأقيسة (...) فالعقل إذن قوة تجريد، تنتزع الصورة من المادة، وتترك المعاني الكلية كالجوهر والعرض، والعلة والمعلول، والغاية والوسيلة، والخير والشر إلخ.¹ " والعقلانية هي القول بأولية العقل (...) والمذهب العقلي (Intellectualisme) هو القول أن كل موجود فهو مردود إلى مبادئ عقلية، وهو مذهب ديكارت، وسبينوزا، ولايبنيز، وفولف، وهيجل². وعليه يمكننا فهم العقلانية بوصفها مذهب فلسفي يرى أن :

- العقل هو المصدر الأول للمعرفة الحقيقية.
- المعرفة اليقينية تقوم على مبادئ عقلية فطرية أو قبلية.
- الحواس قد تخطئ، بينما العقل قادر على بلوغ الحقيقة عبر الاستدلال³.

2- عرض تاريخي لأعلام التيار العقلاني :

نشأت العقلانية كتيار في القرن السابع عشر مع تطور الرياضيات والفيزياء الحديثة، خاصة بعد أعمال غاليليو ونيوتن، حيث أصبح النموذج الرياضي مثلاً للمعرفة اليقينية. فسعى الفلاسفة إلى جعل الفلسفة علماً دقيقاً يقوم على منهج شبيه بالرياضيات. وقد جاءت العقلانية رداً على : الشك المعرفي - الاعتماد المفرط على التجربة الحسية - سلطة الفكر المدرسي واللاهوتي.

1- رينيه ديكارت (1596-1650) :

فيلسوف فرنسي، يُعد مؤسس العقلانية الحديثة. انطلق من الشك المنهجي للوصول إلى يقين أول هو : أنا أفكر إذن أنا موجود. اعتبر أن العقل يحتوي أفكاراً فطرية، وأن المنهج الرياضي هو الطريق الموثوق إلى المعرفة اليقينية⁴.

أهم أفكاره : الشك المنهجي – الكوجيتو (أنا أفكر، فإذن أنا موجود) - وضوح وتمييز الأفكار معياراً للحقيقة.

2- باروخ سبينوزا (1632-1677) :

فيلسوف يهودي، سعى إلى بناء فلسفة على نموذج هندسي صارم، ورأى أن الواقع كله جوهر واحد هو الطبيعة أو الله. المعرفة الحقيقية عنده معرفة عقلية تقوم على الضرورة⁵.
أهم أفكاره : وحدة الوجود - الحتمية العقلية - المعرفة الحدسية والعقلية.

3- غوتفريد لايبنتز (1646-1716) :

فيلسوف ألماني، دافع عن فكرة المبادئ العقلية الفطرية، واعتبر أن العالم يتكون من جواهر روحية بسيطة سماها المونادات. وأكد أن العقل يحتوي استعدادات قبلية للمعرفة⁶.

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 84-85.

² - المرجع نفسه، ص 90-91.

³ - العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، تر : محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 1997، ص 17.

⁴ - عصر العقل، ستيفارت هامبشر، تر : ناظم الطحان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط3، 2001، ص 92.

⁵ - المرجع نفسه، ص 151-152.

⁶ - المرجع نفسه، ص 213.

أهم أفكاره : المونادات - الانسجام المسبق - الحقائق العقلية الضرورية.

4- العقلانية الإسلامية :

تُمثل العقلانية الاعتزالية إحدى أبرز اللحظات الفكرية في تاريخ الفلسفة الإسلامية، إذ سعى المعتزلة منذ القرن الثاني الهجري إلى تأسيس فهم ديني يقوم على التوفيق بين الإيمان والعقل. فقد اعتبروا العقل أداة أساسية لمعرفة الخير والشر وإدراك المبادئ الأخلاقية، ورأوا أن الإنسان مسؤول عن أفعاله بفضل حريته واختياره، وهو ما انعكس في قولهم بالعدل الإلهي ورفض الجبر. كما دافعوا عن تأويل النصوص الدينية بما ينسجم مع مقتضيات العقل، معتبرين أن الوحي لا يمكن أن يتعارض مع البرهان العقلي الصحيح¹. وقد أسهم هذا التوجه في تنشيط علم الكلام وتطوير النقاشات الفلسفية والعلمية داخل الحضارة الإسلامية، حيث فتح المجال أمام التفكير النقدي والحوار مع الفلسفات اليونانية والعلوم الوافدة.

أما العقلانية الرشدية، التي تبلورت مع الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (1126-1198م)، فقد مثّلت مرحلة أكثر نضجاً في الدفاع عن العقل، إذ أكد ابن رشد على الانسجام العميق بين الفلسفة والشريعة، ورأى أن البحث العقلي ليس معارضاً للدين بل واجباً لمن يمتلك القدرة البرهانية. وقد ميّز بين مستويات الفهم المختلفة للنصوص، داعياً إلى التأويل العقلي عندما يبدو التعارض ظاهرياً بين النص والبرهان². وتكمن أهمية العقلانية الرشدية، قديماً وحديثاً، في ترسيخها لفكرة التعدد المعرفي واحترام العقل بوصفه وسيلة لفهم العالم والدين معاً، وهو ما يمنح الفكر الإسلامي اليوم إمكانية تجديد قراءاته التراثية ومواجهة تحديات العصر عبر الحوار بين الإيمان والعلم، بدل الصراع بينهما.

5- المبادئ العامة للتيار العقلاني :

• أولوية العقل كمصدر للمعرفة

يرى العقلانيون أن العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة اليقينية، لأنه يمتلك القدرة على إدراك الحقائق الكلية والضرورية التي لا يمكن للحواس وحدها بلوغها. فالمعرفة الحسية متغيرة وخاضعة للخطأ والوهم، بينما يمنح العقل معرفة ثابتة تقوم على الوضوح والضرورة.

ويؤكد هذا المبدأ أن الحقيقة لا تُستمد من التجربة فقط، بل من نشاط الفكر ذاته³. لذلك اعتبر ديكارت أن نقطة البداية في الفلسفة يجب أن تكون فكرًا يقينياً يدركه العقل مباشرة، لا معطى حسياً قد يكون خادعاً.

• وجود الأفكار الفطرية (Innate Ideas)

يؤمن العقلانيون بوجود أفكار أو مبادئ كامنة في العقل قبل التجربة، أي أن العقل لا يبدأ صفحة بيضاء. هذه الأفكار ليست معارف جاهزة بالكامل، بل استعدادات عقلية تمكّن الإنسان من إدراك مفاهيم مثل : اللاتناهي – المطلق – الكمال – العلية/السببية – المبادئ الرياضية والمنطقية، وعند ديكارت تمثل فكرة الله بوصفه الكمال المطلق مثلاً على الفكرة الفطرية التي يعيها العقل بصورة واضحة منذ البداية، وذلك مانجده أيضاً في نظرية كانط عن المقولات العقلية القبلية، والتي تجعل التجربة نفسها ممكنة⁴.

• المنهج الاستنباطي (Deductive Method)

يعتمد التيار العقلاني على الاستنباط، أي الانتقال من مبادئ عامة يقينية إلى نتائج جزئية. وقد استلهم هذا المنهج من الرياضيات والهندسة، فالعقل في مجال المعرفة يعني بالأساس كل منهج قائم على المنطق والحساب، حيث أن كلمة (Ratio) تعني في أصلها اللاتيني (حساب)⁵، وحيث أنه يمكن اشتقاق نتائج رياضية كثيرة من مسلمات بسيطة، فالمعرفة الصحيحة عند العقلانيين تُبنى أيضاً كما تُبنى البراهين الرياضية :

1. تحديد مبادئ أولية يقينية (بديهيات).

2. استعمال العقل لاستخراج النتائج.

¹ - النزعة العقلية في تفكير المعتزلة، علي فهم خشيم، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، 1967، ص 32.

² - العقل والوحي، أشرف منصور، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ص 84-85.

³ - العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، مرجع سابق، ص 17

⁴ - المرجع نفسه، ص 17.

⁵ - المرجع نفسه، ص 07.

3. بناء نسق معرفي مترابط منطقيًا.

وقد حاول سبينوزا تطبيق هذا النموذج حرفيًا من خلال كتابه (الإيتيقا/الأخلاق) عبر المنهج الهندسي.

● الحتمية العقلية والنظام الكوني

يميل العقلانيون إلى تصور العالم باعتباره نظامًا محكومًا بقوانين ضرورية لا تحدث فيه الأشياء مصادفة، فكل حدث له سبب، وكل ظاهرة يمكن تفسيرها عقليًا، وقد بلغت هذه الفكرة ذروتها عند سبينوزا الذي رأى أن كل شيء يحدث وفق ضرورة طبيعة الوجود نفسه¹.

● انسجام العقل والطبيعة

يقوم أحد المبادئ الأساسية في التيار العقلاني على فكرة أن هناك توافقًا أو انسجامًا عميقًا بين بنية العقل الإنساني وبنية الطبيعة؛ أي أن العالم ليس فوضويًا أو عبيثًا، بل منظم وفق قوانين عقلية يمكن للفكر الإنساني إدراكها وفهمها. فإمكان المعرفة العلمية نفسه يفترض أن الطبيعة قابلة للفهم، وأن القوانين التي تحكمها تتوافق مع مبادئ التفكير العقلي، وكانط نفسه يرى بأن العقل لا يكتشف النظام في الطبيعة فقط، بل يساهم في بنائه، فالذهن الإنساني يمتلك صورًا وقوالب قبلية — مثل الزمان والمكان ومقولات الفهم كالسببية — وهي التي تنظم المعطيات الحسية وتجعل التجربة ممكنة أصلاً. بمعنى آخر، الطبيعة كما نعرفها ليست معطاة جاهزة بالكامل، بل هي ظواهر تتشكل وفق البنية القبلية للعقل².

6- خلاصة :

يرتكز التيار العقلاني على اعتبار العقل المصدر الأساسي للمعرفة اليقينية، إذ يرى أن الحقيقة لا تستمد من الحواس وحدها، بل من مبادئ عقلية قبلية تمكن الإنسان من إدراك القوانين الكلية والضرورية. وقد نشأ هذا التيار في الفلسفة الحديثة مع فلاسفة القرن السابع عشر، الذين سعوا إلى بناء معرفة فلسفية تقوم على المنهج الاستنباطي على غرار الرياضيات. ويتميز هذا الاتجاه بالإيمان بوجود أفكار فطرية، وبالثقة في قدرة العقل على بلوغ الحقيقة، وباعتبار العالم منظمًا وفق قوانين عقلية يمكن فهمها. غير أن هذا التصور تعرض لنقد لاحق، خاصة مع إيمانويل كانط، الذي بين أن المعرفة نتاج تفاعل بين العقل والتجربة. ومع ذلك، يبقى التيار العقلاني محطة أساسية في تاريخ الفلسفة، إذ أسهم في تأسيس العلم الحديث وترسيخ مكانة العقل كأداة مركزية لفهم الإنسان والعالم.

¹ - العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، مرجع سابق، ص 68.

² - العقل والعقلانية، تر : محمد سيلا - عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2007، ص 17.

التيار التجريبي – التجريبية (Empiricism)

مقدمة :

يُعدّ التيار التجريبي أحد أبرز الاتجاهات الفلسفية في العصر الحديث، وقد ظهر أساساً في إنجلترا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، في سياق تطور العلوم الطبيعية. يقوم هذا التيار على فكرة مركزية مفادها أن التجربة الحسية هي المصدر الأول للمعرفة، في مقابل التيار العقلاني الذي يمنح الأولوية للعقل. وقد سعى التجريبيون إلى تأسيس المعرفة على الملاحظة والتجربة بدل المبادئ الفطرية.

1- تعريف التجريبية اصطلاحاً :

في المعجم الفلسفي : " التجريبية Empirisme اسم يطلق على كل المذاهب الفلسفية التي تنكر وجود أوليات عقلية متقدمة على التجربة وتمتيزه عنها"¹.

التجريبية إذا هي اتجاه فلسفي في نظرية المعرفة يؤكد أن أصل المعرفة الإنسانية ومصدرها الأساسي هو التجربة الحسية، إذ لا يمتلك العقل أفكاراً سابقة أو فطرية مستقلة عن الخبرة. فالمعرفة، وفق هذا التصور، تتكوّن تدريجياً من خلال التفاعل المباشر مع العالم الخارجي عبر الإحساس والملاحظة، بحيث تصبح التجربة معيار صدق الأفكار وأساس بناء المفاهيم. وقد نشأ هذا الاتجاه في مقابل النزعة العقلانية التي تمنح الأولوية للعقل، وارتبط خاصة بالفلسفة الإنجليزية الحديثة التي سعت إلى تأسيس المعرفة على الوقائع التجريبية بدل التأملات الميتافيزيقية المجردة.

2- أعلام التيار التجريبي :

• فرانسيس بيكون (1561-1626) : تأسيس المنهج التجريبي

يُعد فرانسيس بيكون نقطة الانطلاق الحقيقية للتجريبية الحديثة، إذ دعا إلى القطيعة مع التفكير المدرسي القائم على القياس، واقترح بدلاً منه المنهج الاستقرائي الذي ينطلق من ملاحظات جزئية ليصل إلى قوانين عامة. كما انتقد ما سماه "أوهام العقل" (أصنام القبيلة، الكهف، السوق، المسرح)، وهي تصورات مسبقة تعيق المعرفة. من أهم أعماله : *الأورغانون الجديد* (1620).

• جون لوك (1632-1704) : العقل صفحة بيضاء

يرى جون لوك أن الإنسان يولد دون أفكار فطرية، وأن العقل أشبه بـ **صفحة بيضاء** تُملأ بالتجربة. وقد ميّز بين:

- التجربة الخارجية (الإحساس) : مصدر الأفكار المرتبطة بالعالم الخارجي .
 - التجربة الداخلية (الانعكاس) : مصدر أفكار التفكير والإرادة.
- كما فرّق بين الأفكار البسيطة التي تأتي مباشرة من التجربة، والأفكار المركبة التي يصنعها العقل بتركيب تلك المعطيات.
- من أهم أعماله : *مقالة في الفهم الانساني* (1690).

• ديفيد هيوم (1711-1776) : الشك في السببية

بلغت التجريبية ذروتها النقدية مع ديفيد هيوم، الذي فرّق بين:

- الانطباعات (Impressions) : معطيات حسية قوية ومباشرة .
- الأفكار (Ideas) : صور ضعيفة لتلك الانطباعات.²

ومن هذا المنطلق، شكّك في مفاهيم أساسية مثل السببية، معتبراً أننا لا نرى علاقة ضرورية بين السبب والنتيجة، بل فقط تعاقباً متكرراً يولد عادة ذهنية.

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 245.

² - المادية والمذهب التجريبي، لينين، تر : فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، ط 02، بدون تاريخ، ص 21-22.

3- مبادئ التيار التجريبي :

يقوم التيار التجريبي على مجموعة من المبادئ المعرفية التي تشكل أساس تصوره للمعرفة والعلم والإنسان. وقد تبلورت هذه المبادئ خصوصاً مع فلاسفة التجريبية الإنجليزية مثل جون لوك وجورج بركلي وديفيد هيوم.

• أولوية التجربة الحسية في المعرفة :

يرى التجريبيون أن التجربة الحسية هي المنبع الأول لكل معرفة إنسانية، فالعقل لا يستطيع إنتاج أفكار من ذاته دون الاحتكاك بالعالم الخارجي، فالحواس — كالسمع والبصر واللمس — تمثل الوسيط الذي تنتقل عبره المعطيات الواقعية إلى الذهن، ومن خلالها تتشكل المفاهيم والأحكام، وبذلك تصبح المعرفة نتيجة علاقة مباشرة بين الذات العارفة والواقع المحسوس، لا نتيجة تأمل عقلي خالص. ولهذا اعتبر التجريبيون أن أي فكرة لا يمكن إرجاعها إلى أصل حسي تُعد فكرة فارغة أو بلا معنى معرفي.

• رفض الأفكار الفطرية :

ينكر التيار التجريبي وجود أفكار مغروسة في العقل منذ الولادة. فالعقل عند الإنسان يولد خالياً من المضامين المعرفية، ويُشَبَّه بـ **الصفحة البيضاء** التي تُكتب عليها الخبرة.

وقد استند التجريبيون في ذلك إلى ملاحظات بسيطة :

- ✓ اختلاف الأفكار بين الشعوب والثقافات.
 - ✓ تطور المعرفة تدريجياً مع التعلم والتجربة.
 - ✓ اكتساب الطفل للمعرفة عبر الاحتكاك بالعالم لا عبر التذكر.
- وبهذا يصبح التعلم عملية تراكم خبرات لا استرجاع معارف سابقة.

• المنهج الاستقرائي :

يعتمد التفكير التجريبي على **الاستقراء**، أي الانتقال من الملاحظات الجزئية إلى القوانين العامة. فبدل الانطلاق من مبادئ عقلية مسبقة، يبدأ الباحث بملاحظة الوقائع ثم يستخلص منها قواعد عامة.

مثال:

ملاحظة سقوط الأجسام مراراً → استنتاج قانون عام للجاذبية.
وهذا المبدأ أصبح أساس المنهج العلمي الحديث القائم على التجربة والاختبار.

• نقد مفهوم الضرورة والسببية :

بلغت الفلسفة التجريبية ذروة تطورها النقدي مع الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (1711-1776)، الذي أعاد النظر جذرياً في أحد أكثر المفاهيم رسوخاً في التفكير الإنساني، وهو مفهوم السببية. فقد انطلق هيوم من المبدأ التجريبي القائل إن جميع معارفنا يجب أن تستند إلى الخبرة الحسية المباشرة، ثم طرح سؤالاً بسيطاً لكنه عميق: ماذا نلاحظ فعلاً عندما نقول إن شيئاً ما هو سبب لشيء آخر؟ يجيب هيوم بأننا، عند التأمل في التجربة، لا ندرك السبب ذاته بوصفه قوة خفية، بل نلاحظ فقط أن ظاهرة ما تتبع أخرى بشكل متكرر ومنظم. فعندما نرى كرة بلياردو تصطدم بأخرى فتتحرك الثانية، فإننا لا نرى "قوة السببية" نفسها، بل نرى مجرد تعاقب حدثين في الزمن.¹

ومن هنا خلص هيوم إلى أن الاعتقاد بوجود علاقة سببية ضرورية ليس معرفة عقلية يقينية، وإنما عادة ذهنية تتكون نتيجة التكرار المستمر للتجارب المتشابهة؛ إذ يعتاد العقل توقع حدوث النتيجة كلما ظهر السبب الظاهري. فالشمس تشرق كل يوم، فنعتقد يقيناً أنها ستشرق غداً، لكن هذا الاعتقاد — عند هيوم — لا يقوم على برهان عقلي ضروري، بل على الاعتياد النفسي. وقد أدى هذا التحليل إلى ظهور مشكلة عميقة تُعرف بـ **الشك المعرفي**، لأن العلم نفسه يعتمد على فكرة القوانين السببية والتنبؤ بالمستقبل انطلاقاً من الماضي. لذلك كان تأثير هيوم حاسماً في الفلسفة الحديثة، حيث دفع **إيمانويل كانط** لاحقاً إلى إعادة التفكير في أسس المعرفة، محاولاً التوفيق بين التجربة والعقل عبر القول إن السببية ليست مستمدة من التجربة وحدها، بل هي مبدأ ينظم به العقل خبرتنا بالعالم. وبذلك أصبحت فلسفة هيوم نقطة تحول مركزية نقلت التجريبية من مرحلة الثقة في التجربة إلى مرحلة النقد الفلسفي العميق لأسس المعرفة نفسها.

¹ - الموسوعة الفلسفية المختصرة، فؤاد كامل، جلال العشري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص 113-114.

4- خلاصة :

تتمحور مبادئ التيار التجريبي حول فكرة أساسية مفادها أن الإنسان يعرف العالم عبر الخبرة الحسية، وأن العقل ينظم المعطيات لكنه لا ينتج المعرفة من ذاته. ومن خلال تأكيده على التجربة والاستقراء أسهم التيار التجريبي إسهامًا حاسمًا في تعزيز النزعة العلمية داخل الفكر المعاصر، إذ رسّخ مبدأ أن المعرفة الموثوقة يجب أن تقوم على **الملاحظة والتجربة والتحقق العملي** بدل الاعتماد على التأملات الميتافيزيقية أو المسلمات المسبقة. فقد جعلت التجربة من الخبرة الحسية معيارًا للحقيقة، الأمر الذي مهّد لقيام المنهج العلمي الحديث القائم على الفرضية والاختبار وإمكانية التكرار والتحقق. وبفضل هذا التوجه، أصبحت العلوم الطبيعية والإنسانية تعتمد على الأدلة التجريبية والبيانات القابلة للقياس، مما ساهم في تطور الفيزياء والطب وعلم النفس والعلوم الاجتماعية. كما عززت التجريبية روح النقد العلمي، إذ لم يعد أي ادعاء معرفي مقبولًا ما لم يخضع للفحص والتجربة، وهو ما دعم قيم الموضوعية والحياد العلمي. وفي الفكر المعاصر، تظهر آثار هذا التيار في انتشار التفكير العلمي، واعتماد الإحصاء والتجريب في اتخاذ القرار، وتنامي الثقة بالبحث العلمي بوصفه الوسيلة الأنجع لفهم العالم وحل مشكلات الإنسان، مما جعل التجريبية أحد الأسس الفلسفية التي قامت عليها الحداثة العلمية والتكنولوجية.

التيار البنوي – البنوية (Structuralisme)

مقدمة :

ظهرت البنوية في القرن العشرين بوصفها أحد أهم التيارات الفكرية التي سعت إلى إعادة فهم الظواهر الإنسانية المتنوعة والعلمية من خلال البحث عن البنى العميقة التي تنظمها، وقد مثلت تحولاً منهجياً من دراسة العناصر المنفردة إلى تحليل العلاقات والأنظمة التي تمنح الأشياء معناها، ولم تبق البنوية حبيسة اللسانيات، بل امتدت إلى الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والنقد الأدبي، فأصبحت إطاراً معرفياً مؤثراً في العلوم الإنسانية المعاصرة.

1- تعريف معنى البنية/البنوي :

يرتبط مفهوم البنوية بكلمة البنية (Structure)، وهي لفظة تدل في أصلها اللغوي على البناء أو التنظيم. ولا يُقصد بالبنية مجرد الشكل الخارجي للأشياء، بل الطريقة التي تنتظم بها عناصر متعددة داخل كل واحد متماسك. فالبنية تعني النظام الداخلي الذي يجعل الأجزاء مترابطة بحيث يكتسب كل عنصر معناه من علاقته بالعناصر الأخرى، لا من وجوده منفصلاً عنها.

ومن هذا المنظور، لا يمكن فهم أي ظاهرة فهمًا حقيقيًا من خلال دراسة عناصرها بشكل معزول، بل يجب النظر إليها داخل النسق الذي تنتمي إليه. فالمعنى لا ينشأ من العنصر وحده، وإنما من شبكة العلاقات التي تربطه ببقية العناصر داخل الكل. ولهذا تؤكد البنوية أن ما يمنح الأشياء دلالتها هو موقعها داخل النظام العام الذي يحتويها. تُفهم البنية بوصفها نظاماً من العلاقات المتبادلة؛ فإذا تغير عنصر واحد داخلها تأثرت بقية العناصر، لأن توازنها يقوم على الترابط بينها¹. ومن هنا اتجهت البنوية إلى البحث عن القوانين الداخلية التي تنظم الظواهر الإنسانية، بدل الاكتفاء بوصفها وصفاً سطحياً.

وقد استُخدم هذا التصور في مجالات عديدة مثل اللغة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والنقد الأدبي، حيث أصبح الهدف هو الكشف عن البنيات العميقة التي تتحكم في الظواهر الإنسانية وتفسر انتظامها ومعناها.

2- مقارنة تاريخية لأبرز اعلام التيار البنوي :

• فرديناند دي سوسير (1857-1913): التأسيس اللساني للبنوية

يُعد فرديناند دي سوسير المؤسس النظري الأول للبنوية الحديثة، إذ أحدث تحولاً جذرياً في فهم اللغة عندما رفض النظر إليها باعتبارها مجرد قائمة كلمات تشير إلى أشياء، ورأى بدلاً من ذلك أنها نسق من العلامات يقوم على العلاقات الداخلية بين عناصره. فالمعنى لا ينبع من الكلمة في ذاتها، بل من اختلافها عن الكلمات الأخرى داخل النظام اللغوي. وقد ميّز بين اللغة بوصفها نظاماً اجتماعياً ثابتاً والكلام بوصفه استعمالاً فردياً، مما سمح بدراسة اللغة علمياً باعتبارها بنية مستقلة. أثرت هذه الفكرة في جميع العلوم الإنسانية لاحقاً، إذ أصبحت البنية أهم من العنصر الفردي.

أهم الأعمال : دروس في اللسانيات العامة (1916)، وهو الكتاب الذي جمعه تلامذته بعد وفاته، ويُعد النص المؤسس للبنوية.

• كلود ليفي-شترأوس (1908-2009): البنوية الأنثروبولوجية

نقل ليفي-شترأوس المنهج البنوي من مجال اللغة إلى دراسة الثقافة والمجتمع، مؤكداً أن العقل الإنساني يعمل وفق بنى لاواعية مشتركة تظهر في الأساطير وأنظمة القرابة والعادات الاجتماعية. فقد لاحظ أن اختلاف الثقافات يخفي وراءه تنظيماً ذهنياً متشابهاً يعتمد على ثنائيات متقابلة مثل الطبيعة/الثقافة أو الحياة/الموت. واعتبر أن مهمة الأنثروبولوجيا ليست وصف العادات، بل الكشف عن القواعد العميقة التي تنتجها. بهذا المعنى أصبحت الثقافة نظاماً رمزياً يمكن تحليله علمياً مثل اللغة.

أهم الأعمال : البنى الأولية للقرابة (1949)، والأنثروبولوجيا البنوية (1958)، حيث عرض منهجه في تحليل الأساطير والبنيات الثقافية.

¹ - البنوية في الفكر الغربي المعاصر، عمر مهيل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 03، 2010، صفحات 22-23.

• جاك لاكان (1901-1981): البنيوية والتحليل النفسي

أعاد جاك لاكان قراءة فرويد في ضوء البنيوية واللسانيات الحديثة، فاعتبر أن اللاوعي ليس مجالاً غامضاً أو فوضوياً، بل منظم مثل اللغة. فالإنسان، في نظره، يدخل منذ طفولته في نظام رمزي يتمثل في اللغة والقوانين الاجتماعية، ومن خلاله تتشكل هويته ورغباته. وقد ميز بين مستويات ثلاثة: الواقعي، والتمثيلي، والرمزي، مؤكداً أن الذات ليست مركزاً ثابتاً بل نتاج علاقات رمزية. أسهم لاكان في ربط علم النفس بالبنية اللغوية، مما جعل التحليل النفسي جزءاً من المشروع البنيوي العام.

أهم الأعمال : الكتابات (1966)، إضافة إلى الندوة الأولى (1953-1954) ضمن سلسلة ندواته الشهيرة.

• رولان بارت (1915-1980): البنيوية والنقد الأدبي

طبق رولان بارت المنهج البنيوي على الأدب والثقافة الجماهيرية، فاعتبر النص الأدبي نظاماً من العلامات يعمل وفق قوانين داخلية مستقلة عن نوايا المؤلف. وقد انتقل النقد الأدبي معه من البحث عن المعنى النفسي أو التاريخي للنص إلى تحليل بنيته السردية والرمزية. كما درس الظواهر اليومية — مثل الإعلانات والصور — باعتبارها أنظمة دلالية تكشف عن أساطير المجتمع الحديث. وأسهمت كتاباته في تأسيس السيميولوجيا الحديثة وتحويل القراءة إلى تحليل علمي للخطاب.

أهم الأعمال : أسطوريات (1957)، و S/Z (1970) الذي قدم فيه تحليلاً بنيوياً دقيقاً للنص الأدبي.

• ميشيل فوكو (1926-1984): البنية وأنظمة المعرفة

رغم أن فوكو تجاوز البنيوية لاحقاً، فإن أعماله في الستينيات ارتبطت بالمشروع البنيوي عبر تحليل البنيات المعرفية التي تنظم التفكير في كل عصر. فقد رأى أن المعرفة لا تتطور بشكل خطي، بل داخل أنظمة فكرية خفية تحدد ما يمكن قوله واعتباره علماً. اهتم بدراسة الخطابات العلمية والمؤسسات الاجتماعية للكشف عن العلاقات بين المعرفة والسلطة. وهكذا تحول التحليل الفلسفي إلى دراسة شروط إنتاج المعرفة نفسها.

أهم الأعمال : الكلمات والأشياء (1966)، وحفريات المعرفة (1969).

• لويس ألتوسير (1918-1990): البنيوية والماركسية

سعى ألتوسير إلى إعادة قراءة ماركس قراءة بنيوية، رافضاً التفسير الإنساني أو الاختزالي للتاريخ. فقد اعتبر المجتمع بنية معقدة تتكون من مستويات متعددة (اقتصادية، سياسية، أيديولوجية) تتفاعل فيما بينها دون أن تختزل في عامل واحد. كما رأى أن الأيديولوجيا تشكل وعي الأفراد عبر مؤسسات اجتماعية مثل المدرسة والأسرة والإعلام. وبذلك تحولت الماركسية لديه إلى تحليل علمي للبنيات الاجتماعية بدل التركيز على الفاعل الفردي.

أهم الأعمال : من أجل ماركس (1965)، وقراءة رأس المال (1965).¹

3- مبادئ التيار البنيوي :

✓ أولوية البنية على العناصر الفردية

تري البنيوية أن فهم الظاهرة لا يتحقق بدراسة عناصرها منفصلة، بل بدراسة العلاقات التي تربط بينها داخل نسق كلي، فالعنصر لا يملك معنى ثابتاً في ذاته، وإنما يكتسب دلالاته من موقعه داخل البنية.

مثال : في اللغة، الكلمة لا تحمل معناها وحدها، بل يتحدد معناها بعلاقتها ببقية الكلمات داخل الجملة، فكلمة "عين" قد تعني عضو البصر أو نبع الماء أو الجاسوس، والمعنى يتحدد حسب السياق اللغوي الذي تنتمي إليه.

• مبدأ العلاقات بدل الجواهر

تركز البنيوية على العلاقات والبنى العميقة بدل البحث عن ماهيات ثابتة أو جوهر إنساني مطلق. فالواقع الإنساني يُفهم بوصفه شبكة من العلاقات المنظمة.

مثال : في علم الاجتماع، لا يُفهم الفرد بمعزل عن المجتمع، بل من خلال علاقاته الاجتماعية : الأسرة، العمل، الثقافة، والقيم المشتركة.

• مبدأ النسق أو الكلية (Totality)

كل بنية تشكل نظاماً متكاملًا؛ أي أن أي تغيير في عنصر واحد يؤدي إلى تغيير في بقية العناصر.

¹ - البنيوية في الفكر الغربي المعاصر، عمر مهيبيل، مرجع سابق، صفحات 26-31.

مثال : في اللغة، إذا تغير معنى كلمة أساسية، قد تتغير دلالات كلمات أخرى مرتبطة بها، وكذلك في الاقتصاد، تغيير قانون واحد قد يؤثر في السوق كله.

• إقصاء الذات أو زعزعة مركزية الإنسان

تري البنيوية أن الإنسان ليس سيد المعنى بالكامل، بل هو خاضع لبنيات لغوية وثقافية تسبق وجوده، لذلك توصف البنيوية بفلسفة موت الإنسان، أو تمثل موت النزعة الانسانية في الفكر الغربي المعاصر، التي تجعل من الانسان هو مركز الكون ومصدر المعنى في العالم¹.

مثال:

نحن نتكلم لغة لم نخترعها، لأنها رموز نجدها قبلنا وتم تطويرها بطرق عدة، واللغة هي التي تحدد طريقة تفكيرنا والتعبير عن العالم.

✓ الطابع العلمي والموضوعي للتحليل البنيوي

تحاول البنيوية أن توجه البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية، قدر الإمكان، إلى الاقتداء بالمنهج العلمي. فقد ظهرت البنيوية في سياق سعي الفلاسفة وعلماء الإنسان في القرن العشرين إلى تجاوز التفسيرات الانطباعية أو الذاتية التي تعتمد على النوايا الشخصية أو الأحكام القيمية، والانتقال نحو تحليل قائم على القواعد والأنظمة القابلة للدراسة المنهجية. لذلك اهتم البنيويون بالكشف عن القوانين المنظمة للظواهر بدل تفسيرها اعتماداً على مشاعر الأفراد أو سيرهم الذاتية².

فالباحث البنيوي لا يسأل : ماذا أراد الفرد أن يقول؟ بل يسأل : ما النظام الذي يجعل هذا القول ممكناً؟ أي إن الهدف يصبح دراسة البنية التي تنتج المعنى، لا الوعي الفردي الذي يعبر عنه فقط. ومن هنا حاولت البنيوية جعل العلوم الإنسانية أكثر دقة وصرامة عبر تحليل العلاقات والأنماط المتكررة التي يمكن ملاحظتها ومقارنتها.

مثال : قبل البنيوية، كانت دراسة اللغة تركز على تاريخ الكلمات أو نوايا المتكلم، أما مع فرديناند دي سوسير، فقد أصبحت اللغة تُدرس كنظام من القواعد والعلاقات بين العلامات، فالعالم اللغوي لا يهتم بما يقصده شخص معين، بل بالبنية التي تنظم اللغة كلها، مثل قواعد النحو والعلاقات بين الدوال والمدلولات.

وأيضاً في علم الاجتماع مثلاً، لا يُفسر السلوك الاجتماعي بالاعتماد على قرارات فردية فقط، بل عبر البنية الاجتماعية التي تحدد الأدوار والقواعد، فاختيار المهنة مثلاً لا يرتبط فقط برغبة الشخص، بل بالبنية الاقتصادية والتعليمية التي السابقة على الفرد، والتي تنظم المجتمع.

4- خلاصة :

مثّلت البنيوية ثورة منهجية في الفكر المعاصر لأنها نقلت البحث العلمي من دراسة الظواهر السطحية إلى الكشف عن القوانين العميقة التي تنظمها. وقد أسهمت في إضفاء طابع علمي على العلوم الاجتماعية عبر التركيز على الأنساق والعلاقات بدل الفردانية والتفسير الذاتي. ورغم الانتقادات التي وُجّهت إليها لاحقاً وظهور ما بعد البنيوية، فإن أثرها ما يزال حاضراً في مناهج البحث الحديثة، حيث تستمر فكرة تحليل البنى والأنظمة في توجيه فهمنا للمجتمع والثقافة واللغة.

¹ - البنيوية فلسفة موت الانسان، روجيه غارودي، تر : جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ص 13.

² - مشكلة البنية، زكريا ابراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، 1990، ص 22.

التيار الوظيفي – الوظيفية (Fonctionnalisme)

مقدمة :

يُعدّ التيار الوظيفي أحد الاتجاهات الفكرية التي تدرج ضمن التصور العقلاني للعلوم الإنسانية، وقد برز بوصفه مقارنة تحليلية معاصرة كان لها حضور قوي في مجالات متعددة، مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ واللغة. وترجع جذور هذا التيار إلى التحولات التي عرفها الفكر العلمي منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث تأثرت العلوم الإنسانية بالنموذج العلمي الطبيعي، فسعت إلى اعتماد مناهج أكثر دقة وموضوعية في فهم الظواهر الاجتماعية. وقد امتد تأثير هذا التيار إلى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث أصبح من أبرز المناهج المهيمنة في دراسة المجتمع، مما يطرح التساؤل حول ماهية الوظيفية وأسسها النظرية.

1- تعريف التيار الوظيفي (الوظيفية) :

تعود كلمة "وظيفة" إلى الأصل اللاتيني Function المشتق من Functio ، والذي يدل على الأداء أو الإنجاز. وفي معناها العام، تشير الوظيفة إلى الدور الذي يؤديه عنصر معين داخل كلّ مركب، بحيث يساهم في تحقيق تماسكه واستمراره. وقد يكون هذا الدور ذا طبيعة بيولوجية أو نفسية أو اجتماعية، كما يمكن أن يرتبط بوظيفة عضو معين داخل نسق متكامل.¹

أما التيار الوظيفي، فهو اتجاه فكري يضم مجموعة من المقاربات في مجالات متعددة، كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات وعلم النفس، ويقوم على إعطاء الأولوية لتحليل وظائف العناصر داخل النسق (البنية) بدل التركيز على أصولها أو تاريخها. فالمجتمع، وفق هذا التصور، يُفهم باعتباره نظاماً متكاملًا تتفاعل داخله مكونات مختلفة، يؤدي كل عنصر فيها دورًا محددًا يساهم في الحفاظ على استقرار الكل.

وعليه، يمكن تعريف التيار الوظيفي بأنه اتجاه نظري يفسّر الظواهر الاجتماعية من خلال الوظائف التي تؤديها داخل المجتمع، أي الدور الذي تقوم به في الحفاظ على تماسك النظام الاجتماعي. فكل مؤسسة أو سلوك أو معتقد لا يُفهم في ذاته، بل من حيث إسهامه في تحقيق التوازن والاستقرار.²

وبهذا المعنى، ينظر الوظيفيون إلى المجتمع كما لو كان كائنًا حيًا، حيث تعمل أجزاؤه (كالأسرة، الدين، الاقتصاد، التعليم) بشكل متكامل لضمان بقاء النظام واستمراره.

2- الخلفية التاريخية للتيار الوظيفي :

تعود الجذور الأولى للتيار الوظيفي إلى القرن التاسع عشر، في سياق نشأة علم الاجتماع ومحاولة فهم المجتمع وفق مناهج علمية دقيقة. وقد ارتبطت هذه البدايات بأعمال مفكرين مثل أوغست كونت (1798-1857)، الذي دعا إلى دراسة المجتمع دراسة علمية على غرار العلوم الطبيعية، معتبرًا أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين يمكن اكتشافها. وفي السياق نفسه، قدّم هربرت سبنسر (1820-1903) تصورًا بيولوجيًا للمجتمع، حيث شبهه بالكائن الحي الذي تتكامل أعضاؤه وتؤدي وظائف مختلفة تضمن بقاءه، وهو ما شكّل الأساس لفكرة "الوظيفة" في التحليل الاجتماعي.

غير أن التأسيس الفعلي للوظيفية كاتجاه سوسيولوجي متماسك يعود إلى أعمال إميل دوركايم (1858-1917)، الذي نقل التفكير الوظيفي من مجرد تشبيه بيولوجي إلى تحليل علمي دقيق. فقد أكد دوركايم أن المجتمع واقع مستقل عن الأفراد، وأن الظواهر الاجتماعية يجب دراستها بوصفها "أشياء" لها وجود موضوعي. كما ركّز على مفهوم التضامن الاجتماعي، مبينًا كيف تسهم المؤسسات المختلفة في الحفاظ على تماسك المجتمع، سواء في المجتمعات التقليدية (التضامن الآلي) أو الحديثة (التضامن العضوي). وبذلك وضع الأسس النظرية الأولى لفهم الوظائف التي تؤديها الظواهر الاجتماعية.³

¹ - أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، تر : خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط 02، 2001، ص 437-438.

² - نظريات علم الاجتماع، عبد العزيز الغريب، دار الزهراء، الرياض، 2012، ص 120.

³ - المرجع نفسه، ص 113-114.

وفي القرن العشرين، خاصة في منتصفه، شهدت الوظيفية تطورًا كبيرًا على يد علماء الاجتماع الأمريكيين، وعلى رأسهم **تالكوت بارسونز (1902-1979)**، الذي قدّم تصورًا شاملاً للمجتمع باعتباره نظامًا يسعى إلى التوازن والاستقرار. وقد صاغ نموذج الشهير **AGIL**، الذي يحدد الشروط الأساسية لبقاء أي نظام اجتماعي (التكيف، تحقيق الأهداف، التكامل، الحفاظ على القيم). ثم جاء **روبرت ميرتون (1910-2003)** ليطور هذا الاتجاه بشكل أكثر واقعية، حيث انتقد الطابع المثالي للوظيفية الكلاسيكية، وميّز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة، كما أدخل مفهوم **الخلل الوظيفي**، مبينًا أن بعض الظواهر قد تؤثر سلبًا في استقرار المجتمع.

وهكذا، يمكن القول إن التيار الوظيفي تطور عبر ثلاث مراحل أساسية:

- مرحلة التأسيس الأولي مع كونت وسبنسر في القرن التاسع عشر.

- مرحلة البناء العلمي مع دوركايم.

- مرحلة التطوير النظري مع بارسونز وميرتون في القرن العشرين .

وقد أسهم هذا المسار التاريخي في ترسيخ الوظيفية كأحد أهم المناهج التي سعت إلى فهم المجتمع بوصفه نظامًا متكاملًا من الوظائف والعلاقات، مع التركيز على آليات الاستقرار والتماسك الاجتماعي.

3- مبادئ التيار الوظيفي :

• المجتمع نظام متكامل

يرى التيار الوظيفي أن المجتمع ليس مجرد مجموعة أفراد يعيشون معًا، بل هو **نظام منظم** تتكامل فيه مؤسسات مختلفة، مثل الأسرة، المدرسة، الاقتصاد، والدولة. كل واحدة من هذه المؤسسات تؤدي دورًا خاصًا، لكنها في الوقت نفسه تعتمد على غيرها. لذلك لا يمكن فهم أي جزء من المجتمع بشكل منفصل، لأن كل جزء مرتبط ببقية الأجزاء.

مثال:

المدرسة لا يمكن أن تنجح في تعليم الطفل إذا لم تقم الأسرة بدورها في التربية، كما أن الدولة تدعم التعليم عبر القوانين والتمويل. هنا نلاحظ كيف تعمل المؤسسات معًا كجهاز واحد.

• لكل عنصر وظيفة

يؤكد الوظيفيون أن كل ظاهرة اجتماعية أو مؤسسة لها **وظيفة محددة**، أي أنها تؤدي دورًا يساهم في استقرار المجتمع. فالوظيفة هي ما يجعل وجود هذا العنصر ضروريًا داخل النظام.

مثال:

المدرسة لا تقتصر وظيفتها على تعليم القراءة والكتابة فقط، بل:

- تنقل القيم الاجتماعية

- تعلم الانضباط

- تُعدّ الأفراد للعمل مستقبلاً.

وهذا كله يساعد على استمرار المجتمع .

• المجتمع يسعى للتوازن

يفترض هذا المبدأ أن المجتمع يميل إلى **الاستقرار والتوازن**، مثل الجسم الذي يحافظ على توازنه. وعندما يحدث خلل في جزء من المجتمع، تحاول بقية الأجزاء التكيف لإصلاحه.

مثال:

إذا ارتفعت نسبة البطالة:

- تتدخل الدولة بخلق فرص عمل

- يتجه الأفراد إلى تعلم مهارات جديدة .

والهدف هو إعادة التوازن إلى المجتمع .

• وجود وظائف إيجابية وسلبية

لا يرى التيار الوظيفي أن كل الظواهر مفيدة فقط، بل يعترف بأنها قد تحمل **نتائج إيجابية وسلبية** في الوقت نفسه.

- النتائج التي تفيد المجتمع تُسمى وظائف
- والتي تضرر به تُسمى خللاً وظيفياً

مثال:

وسائل التواصل الاجتماعي :

- وظيفة إيجابية: تسهيل التواصل ونشر المعرفة
- خلل وظيفي: نشر الأخبار الكاذبة أو الإدمان

وهذا يبين أن نفس الظاهرة يمكن أن تكون مفيدة وضارة في آن واحد.

• التوافق القيمي

يرى الموظفون أن المجتمع يبقى مستقرًا عندما يتفق أفرادُه على قيم مشتركة مثل احترام القانون، التعاون، والعدالة. هذه القيم تجعل الناس يتصرفون بطريقة منسجمة دون الحاجة إلى فرض دائم بالقوة.

مثال:

احترام إشارات المرور:

- ليس فقط خوفاً من الغرامة
 - بل لأن الناس مقتنعون بأن ذلك يحمي حياتهم وحياة الآخرين
- وهذا الاتفاق على القيم يساعد على تقليل الفوضى وتحقيق النظام.

4- أعلام التيار الوظيفي ومجالات الوظيفية :

❖ أوغست كونت (1798-1857) التأسيس المنهجي للفكر الوظيفي :

يُعد أوغست كونت من أوائل الممهدين للفكر الوظيفي، حيث سعى إلى تأسيس علم الاجتماع على أسس علمية دقيقة من خلال عمله المهم : دروس في الفلسفة الوضعية (1830-1842). وقد انطلق من فكرة أن المجتمع يخضع لقوانين ثابتة يمكن اكتشافها كما هو الحال في الطبيعة، مما جعله ينظر إلى الظواهر الاجتماعية باعتبارها عناصر داخل نظام منظم. وبذلك مهّد الطريق لفكرة أن لكل ظاهرة دوراً داخل المجتمع، وهو ما سيصبح لاحقاً جوهر التحليل الوظيفي.

❖ هربرت سبنسر (1820-1903) التشبيه العضوي للمجتمع :

طوّر هربرت سبنسر التصور الوظيفي عبر تشبيه المجتمع بالكائن الحي، كما يتضح في كتابه مبادئ علم الاجتماع (1896-1876)، حيث اعتبر أن المجتمع يتكون من أجزاء مترابطة يؤدي كل منها وظيفة محددة تساهم في بقاء الكل. وقد أدخل مفهوم التطور الاجتماعي، مؤكداً أن المجتمعات تنتقل من البساطة إلى التعقيد، وأن هذا التطور يصاحبه تمايز في الوظائف بين المؤسسات، مما يعزز التكامل داخل النظام الاجتماعي.

❖ إميل دوركايم (1858-1917) التأسيس العلمي للوظيفية :

يمثل إميل دوركايم التأسيس العلمي الحقيقي للوظيفية، إذ حوّلها من مجرد تصور فلسفي إلى منهج سوسيولوجي دقيق، كما يظهر في أعماله تقسيم العمل في المجتمع (1893)، وقواعد المنهج في علم الاجتماع (1895)، والانتحار (1897)، فقد بين أن الظواهر الاجتماعية تؤدي وظائف أساسية في تحقيق تماسك المجتمع، وطرح مفهوم التضامن الاجتماعي بنوعيه الآلي والعضوي، مؤكداً أن المؤسسات ليست مجرد كيانات عشوائية، بل عناصر ضرورية للحفاظ على استقرار النظام الاجتماعي.¹

• برونيسلاف مالينوفسكي (1884-1942) الوظيفية في الأنثروبولوجيا :

أسهم مالينوفسكي في نقل الوظيفية إلى مجال الأنثروبولوجيا، حيث درس الثقافات من خلال وظائفها، فقد رأى أن كل عنصر ثقافي يؤدي وظيفة ترتبط بإشباع حاجات الإنسان الأساسية، سواء كانت بيولوجية أو نفسية أو اجتماعية². وبذلك أعاد توجيه البحث الأنثروبولوجي من دراسة أصول الظواهر إلى تحليل أدوارها داخل حياة الأفراد والمجتمعات.

¹ - نظريات علم الاجتماع، عبد العزيز الغريب، مرجع سابق، ص 113 - 114.

² - السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية، برونسلاو مالينوفسكي، تر : فيليب عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص 10-11.

• ألفريد رادكليف- براون (1881-1955)

قدّم رادكليف- براون تصوّرًا أكثر تجريديًا للوظيفية، حيث ركّز على العلاقة بين البنية والوظيفة، كما يظهر في كتابه (1922) *The Andaman Islanders*، وهو دراسة حول سكان جزيرة أندمان، فقد اعتبر أن الهدف من دراسة الظواهر الاجتماعية هو فهم دورها في الحفاظ على استمرارية البنية الاجتماعية، وليس فقط إشباع حاجات الأفراد. وبذلك أسّس لما يُعرف بالوظيفية البنوية، التي تنظر إلى المجتمع كنظام من العلاقات المنظمة¹.

• تالكوت بارسونز (1902-1979) النظرية الوظيفية الشاملة :

بلغت الوظيفة ذروتها النظرية مع تالكوت بارسونز، الذي قدّم تصوّرًا شاملاً للمجتمع كنظام متكامل في كتابه (1951) *The Social System*، وقد صاغ نموذج AGIL الذي يحدد الوظائف الأساسية لأي نظام اجتماعي (التكيف، تحقيق الأهداف، التكامل، الحفاظ على القيم)²، مبيّنًا أن بقاء المجتمع يعتمد على قدرة مؤسساته على أداء هذه الوظائف، وأسهم بذلك في تحويل الوظيفة إلى نظرية عامة لتحليل النظم الاجتماعية.

• روبرت ميرتون (1910-2003) النظرية النقدية :

طوّر روبرت ميرتون التيار الوظيفي في اتجاه أكثر نقدية وواقعية، كما يظهر في كتابه *Social Theory and Social Structure* (1949)، حيث رفض فكرة أن كل الظواهر الاجتماعية مفيدة بالضرورة. وقد ميّز بين الوظائف الظاهرة (Manifest) والوظائف الكامنة (Latent)³، وأدخل مفهوم الخلل الوظيفي، مبيّنًا أن بعض الظواهر قد تكون لها آثار سلبية على استقرار المجتمع، وبذلك ساهم في تصحيح وتطوير الوظيفة وجعلها أكثر مرونة وقدرة على تفسير الواقع.

5- خلاصة :

وصلنا إلى نتائج نفادها أن التيار الوظيفي يقوم على تصور المجتمع بوصفه نظامًا متكاملًا تتكوّن عناصره من مؤسسات مترابطة، يؤدي كل منها وظيفة محددة تساهم في الحفاظ على استقرار الكل واستمراريته. ويرى أن الظواهر الاجتماعية لا تُفهم من حيث أصلها فقط، بل من خلال الدور الذي تؤديه داخل المجتمع. كما يفترض أن المجتمع يميل بطبيعته إلى التوازن والاستقرار، وأن أي خلل في أحد أجزائه يدفع بقية الأجزاء إلى التكيف لإعادة الانسجام. ويؤكد أيضًا على أهمية التوافق القيمي والتضامن الاجتماعي في ضمان التماسك، مع الاعتراف بأن بعض الظواهر قد تكون لها آثار سلبية، وهو ما يُعرف بالخلل الوظيفي.

وقد كان لهذا التيار تأثير كبير في العلوم الاجتماعية، خاصة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث قدّم أدوات لتحليل المؤسسات مثل الأسرة والتعليم والدين من حيث وظائفها داخل المجتمع. كما ساهم في فهم آليات الاستقرار والتنظيم الاجتماعي، رغم ما وُجه إليه من نقد بسبب تركيزه على التوازن وإهماله نسبيًا لعوامل الصراع والتغيير. ومع ذلك، يظل التيار الوظيفي من أهم المقاربات التي أسهمت في بناء رؤية علمية لفهم المجتمع بوصفه نسقًا من العلاقات والوظائف المتكاملة.

¹ - نظريات علم الاجتماع، عبد العزيز الغريب، مرجع سابق، ص 161-162.

² - المرجع نفسه، ص 179-180.

³ - المرجع نفسه، ص 198.

التيار الماركسي – الماركسية (Marxisme)

مقدمة :

يُعدّ التيار الماركسي من أبرز التيارات الفكرية التي أثّرت في الفلسفة والعلوم الاجتماعية منذ القرن التاسع عشر، حيث نشأ في سياق التحولات العميقة التي عرفت أوروبا مع الثورة الصناعية وصعود الرأسمالية. وقد سعى هذا التيار إلى تفسير المجتمع والتاريخ تفسيراً مادياً، يربط بين البنية الاقتصادية وباقي مظاهر الحياة الاجتماعية. ولم يقتصر هدفه على الفهم النظري، بل تجاوز ذلك إلى تغيير الواقع عبر نقد علاقات الاستغلال والدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية.

1- تعريف الماركسية :

الماركسية هي نظرية فلسفية واقتصادية واجتماعية تقوم على تحليل الواقع انطلاقاً من المادة وشروط الإنتاج¹، وترى أن التاريخ الإنساني هو تاريخ صراع الطبقات، وقد أسسها كل من كارل ماركس (1818-1883) وفريدريك إنجلز (1820-1895)، وتهدف إلى فهم بنية المجتمع الرأسمالي والكشف عن تناقضاته الداخلية.

2- مبادئ التيار الماركسي :

وتقوم الماركسية الكلاسيكية على عدة مبادئ أساسية هي :

• المادية التاريخية :

تقوم الماركسية على مبدأ أن التاريخ الإنساني لا يتطور بفعل الأفكار المجردة (كما نجده في المثالية) أو الإرادة الفردية، بل نتيجة الظروف المادية المرتبطة بالإنتاج والعمل². فطريقة إنتاج الإنسان لوسائل عيشه (كالزراعة، الصناعة، التكنولوجيا) هي التي تحدد شكل المجتمع، كما تحدد طبيعة العلاقات بين أفرادها، ويميز ماركس بين :

- ✓ البنية التحتية : وتشمل الاقتصاد ووسائل الإنتاج .
- ✓ البنية الفوقية : وتشمل السياسة، القانون، الدين، والفكر .

وترى الماركسية أن البنية التحتية هي التي تؤثر في البنية الفوقية وتوجّهها.

مثال :

في المجتمع الصناعي، أدى تطور المصانع إلى ظهور قوانين جديدة للعمل، ونظم تعليمية حديثة، وأفكار سياسية تدافع عن حقوق العمال. وهذا يوضح كيف يحدد الاقتصاد شكل بقية مجالات الحياة.

• التاريخ والصراع الطبقي :

يرى التيار الماركسي أن التاريخ هو تاريخ صراع بين طبقات تختلف مصالحها. فكل مجتمع ينقسم إلى طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة تعمل لديها.

مثال :

في النظام الرأسمالي مثلاً :

¹ - أسس الفلسفة الماركسية، ق. أفاناسييف، تر : عبد الرزاق الرصافي، دار الفارابي، بيروت، ط 04، 1984، ص 14.

² - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص 42-43.

- ✓ أصحاب المصانع (البرجوازية) يسعون إلى الربح.
- ✓ العمال (البروليتاريا) يسعون إلى تحسين أجورهم.¹

هذا التضارب يؤدي إلى صراع دائم بين الطرفين، وينشأ الصراع لأن كل طبقة تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة، مما يؤدي إلى التوتر والتغيير الاجتماعي، و أيضا إضرابات العمال للمطالبة برفع الأجور وتحسين ظروف العمل تعبر في جوهرها عن هذا الصراع بين العمال وأصحاب العمل.

• التغيير الثوري والمجتمع الشيوعي :

لا تكتفي الماركسية بتحليل الواقع، بل ترى أن التغيير الحقيقي لا يحدث إلا عبر ثورة اجتماعية تقودها الطبقة العاملة، بهدف القضاء على الاستغلال وبناء مجتمع أكثر عدالة والذي يسميه الماركسيون (المجتمع الشيوعي)² وهو الغاية النهائية للثورة للحركة الماركسية، عندما يصل الصراع الطبقي إلى ذروته، يحدث تحول جذري يؤدي إلى تغيير النظام الاقتصادي والاجتماعي. .

3- أعلام التيار الماركسي :

• أولاً: المرحلة الكلاسيكية (القرن 19 – بداية القرن 20)

تمثل هذه المرحلة التأسيس النظري للماركسية، حيث وُضعت مفاهيمها الأساسية مثل المادية التاريخية والصراع الطبقي.

- 1- كارل ماركس (1818-1883) : المؤسس الرئيسي للماركسية، قدّم تحليلاً عميقاً للرأسمالية وكشف عن آليات الاستغلال من خلال مفهوم فائض القيمة.
- 2- فريدريك إنجلز (1820-1895) : شريك ماركس في تأسيس الماركسية، ساهم في تطوير المادية التاريخية ونشر أفكارها بعد وفاة ماركس.
- 3- فلاديمير لينين (1870-1924) : قائد الثورة البلشفية الروسية، طوّر الماركسية في سياق الثورة، وربطها بالعمل السياسي والتنظيم الحزبي.

• ثانياً : المرحلة المعاصرة (القرن 20 وما بعده)

- شهدت هذه المرحلة تطويراً ونقداً للماركسية، مع توسيعها لتشمل مجالات جديدة كالثقافة والفلسفة.
- 1- أنطونيو غرامشي (1891-1937) : مفكر إيطالي، أدخل مفهوم **الهيمنة الثقافية**، مبيناً أن السيطرة لا تكون بالقوة فقط، بل عبر الثقافة والأفكار.
 - 2- جورج لوكاتش (1885-1971) : ركّز على **الوعي الطبقي** وأعاد إحياء البعد الفلسفي للماركسية.
 - 3- لويس ألتوسير (1918-1990) : قدّم قراءة بنيوية للماركسية، وركّز على دور الأيديولوجيا في تشكيل وعي الأفراد.

• ثالثاً : مدرسة فرانكفورت (القرن 20)

من أبرز ممثليها : ماكس هوركهايمر (1895-1973) - تيودور أدورنو (1903-1969) - فالتر بينيامين (1892-1940) - هيربرت ماركوز (1898-1979).
وقد طوّروا ما يُعرف بـ **النظرية النقدية**، حيث دمجوا الماركسية مع الفلسفة وعلم النفس لتحليل المجتمع الحديث.

¹ - أسس الفلسفة الماركسية، ق. أفاناسييف، مرجع سابق، ص 119-120.

² - المرجع نفسه، ص 290.

4- خلاصة :

إذا يمكننا ان نخلص إلى أن التيار الماركسي يقوم على مجموعة من المبادئ المترابطة التي تجعل منه رؤية شاملة لفهم المجتمع والتاريخ. فهو ينطلق من **المادية التاريخية** التي ترى أن الواقع الاقتصادي هو الأساس الذي يحدد باقي مظاهر الحياة الاجتماعية، ويؤكد أن **الصراع الطبقي** هو المحرك الأساسي للتاريخ، حيث تتعارض مصالح الطبقات المختلفة داخل كل مجتمع. كما يكشف عن طبيعة الاستغلال في النظام الرأسمالي من خلال مفهوم **فائض القيمة**، ويبرز أهمية **الوعي الطبقي** في دفع العمال إلى إدراك وضعهم والسعي إلى تغييره. ويرتبط ذلك بفكرة **البنية التحتية والفوقية** التي تبين تأثير الاقتصاد في السياسة والقانون والفكر، وصولاً إلى الدعوة إلى **التغيير الثوري** وبناء مجتمع خالٍ من الطبقات يقوم على العدالة والمساواة.

وقد كان لهذا التيار تأثير عميق في الفكر المعاصر، إذ أسهم في تطوير مناهج تحليلية في علم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية، كما ألهم حركات اجتماعية ونقابية سعت إلى الدفاع عن حقوق العمال وتحقيق العدالة الاجتماعية. وامتد تأثيره إلى الفلسفة والنقد الثقافي، حيث استُخدمت مفاهيمه في تحليل الأيديولوجيا والسلطة والثقافة. ورغم ما وُجه إليه من نقد، خاصة بسبب طابعه الحتمي وتركيزه على الصراع، فإنه يظل من أكثر التيارات الفكرية حضوراً وتأثيراً في فهم قضايا الاستغلال، واللامساواة، والتحويلات الاجتماعية في العالم المعاصر.

التيار الوجودي – الوجودية (Existentialisme)

مقدمة :

ظهر التيار الوجودي في سياق الأزمات العميقة التي عرفها العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين، خاصة مع الحروب والتحولات الاجتماعية التي زعزعت الثقة في العقلانية والأنساق الفلسفية الشاملة. وفي هذا الإطار، اتجهت الفلسفة إلى التركيز على الإنسان الفرد، لا باعتباره عنصراً داخل نظام عام، بل ككائن يعيش القلق والحرية والاختيار في عالم مفتوح وغير يقيني. وهكذا أصبحت الوجودية فلسفة تهتم بتجربة الإنسان الحية، وتسعى إلى فهم معنى وجوده ومسؤوليته في تشكيل مصيره.

1- تعريف التيار الوجودي :

الوجودية هي تيار فلسفي يضع الإنسان الفرد في مركز التفكير، ويركّز على تجربته الحية في العالم بما تحمله من حرية وقلق واختيار ومسؤولية. وهي تقوم على فكرة أساسية مفادها أن الوجود يسبق الماهية¹، أي أن الإنسان لا يُولد بطبيعة جاهزة أو جوهر محدد سلفاً، بل يكون ذاته ويصنع هويته من خلال أفعاله ومواقفه. وقد تبلور هذا التصور عبر أعمال مفكرين مثل سورين كيركغارد (1813-1855)، الذي ركّز على التجربة الذاتية والإيمان الفردي، وفريدريك نيتشه (1844-1900)، الذي انتقد القيم التقليدية ودعا إلى خلق قيم جديدة، ثم تطور بشكل واضح بعد الحرب العالمية الثانية مع مارتن هايدغر (1889-1976) وجان بول سارتر (1905-1980).

لا تهدف الوجودية إلى بناء نسق فلسفي مغلق، بل تسعى إلى فهم معنى الوجود الإنساني في عالم مفتوح وغير يقيني. فهي ترفض اختزال الإنسان في كونه مجرد كائن بيولوجي أو عنصر داخل نظام اجتماعي، وتؤكد أنه كائن واع يعيش تجربة فريدة تتسم بالاختيار والقلق والبحث عن المعنى.

2- الخلفية التاريخية لظهور وتطور الوجودية

• الجذور الأولى (القرن 19)

ظهرت البذور الأولى للوجودية في القرن التاسع عشر كرد فعل على الفلسفات العقلانية والنسقية التي سادت مع هيغل، والتي ركّزت على العقل والكليات وأهملت تجربة الفرد. وفي هذا السياق، جاء سورين كيركغارد ليؤكد أن الحقيقة ليست مجرد فكرة عقلية، بل هي تجربة ذاتية يعيشها الفرد، خاصة في علاقته بالإيمان والاختيار. كما ساهم فريدريك نيتشه في تمهيد الطريق للوجودية من خلال نقده الجذري للأخلاق التقليدية والدين، وإعلانه "موت الإله"، وهو ما فتح المجال أمام الإنسان ليصبح مسؤولاً عن خلق قيمه بنفسه.

• مرحلة التأسيس الفلسفي (بداية القرن 20)

في بداية القرن العشرين، تطورت الوجودية مع مارتن هايدغر، الذي أعاد طرح سؤال الوجود بشكل عميق في كتابه *الوجود والزمان* (1927) وقد ركّز على تحليل وجود الإنسان (الدازين) باعتباره كائنًا يعيش في العالم ويواجه القلق والموت.

كما ظهرت إسهامات كارل ياسبرز (1883-1969)، الذي ركّز على التجارب الحديثة مثل الألم والموت، باعتبارها لحظات تكشف حقيقة الوجود الإنساني².

• مرحلة الازدهار (منتصف القرن 20)

بلغت الوجودية ذروتها بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة في فرنسا، مع جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار (1908-1986)

في هذه المرحلة :

- أصبحت الوجودية فلسفة إنسانية ملتزمة .
 - ركّزت على الحرية والاختيار في عالم عبثي .
 - امتد تأثيرها إلى الأدب والمسرح والفن .
- كما ظهرت أفكار ألبير كامو (1913-1960)، الذي تناول مفهوم العبث ومعنى الحياة في عالم بلا يقين.

¹ الوجودية منزع إنساني، جان بول سارتر، تر : محمد نجيب – زهير المدني، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2012، ص 27-28.

² الفلسفة المعاصرة في أوروبا، أ. بوشنكي، تر : عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص 211.

• التحولات اللاحقة (النصف الثاني من القرن 20)

مع ظهور تيارات جديدة مثل البنيوية وما بعدها، تراجع نفوذ الوجودية كنظرية مهيمنة، لكنها استمرت في التأثير في مجالات متعددة، خاصة :

- الفلسفة الأخلاقية .
- علم النفس الوجودي .
- الأدب والفكر الإنساني .

3- مبادئ التيار الوجودي :

• الوجود والمعرفة :

تتأسس الفلسفة الوجودية على نقد عميق للعقلانية المجردة، حيث يرفض الوجوديون اختزال الإنسان في كائن عقلي أو موضوع للمعرفة العلمية، مؤكدين أن التجربة الإنسانية أوسع من أن تُحاط بالمفاهيم المجردة والقلبية، لذلك ينصرف اهتمامهم إلى الوجود الحي كما يُعاش، لا كما يُفكر فيه نظرياً، وهو ما يجعلهم ينتقدون أيضاً النزعة العلمية حين تتعامل مع الإنسان كموضوع طبيعي فقط، لذلك يرى الوجوديون أن المعرفة الحقيقية ليست عقلية خالصة، بل هي معرفة وجودية تنبع من التجربة المباشرة والانخراط في الحياة. فالفهم الأصيل للإنسان لا يتحقق عبر التجريد، بل عبر معايشة القلق، والزمن، والموت، والعلاقة بالآخرين.

• الوجود يسبق الماهية :

يرى جان بول سارتر أن الإنسان لا يمتلك طبيعة جاهزة مسبقاً، بل يوجد أولاً ثم يكون ماهيته من خلال أفعاله، أي أنه مشروع مفتوح يصنع ذاته باستمرار. فخلافاً للأشياء المصنوعة التي تُحدد وظيفتها قبل وجودها، فإن الإنسان يحدد هويته عبر اختياراته. فمثلاً، لا يولد الإنسان شجاعاً أو فاشلاً، بل يصبح كذلك من خلال مواقفه وسلوكه في الحياة.

• الحرية والمسؤولية :

تؤكد الوجودية أن الإنسان حرّ حرية مطلقة، لكنه في المقابل مسؤول مسؤولية كاملة عن كل ما يصدر عنه. فالإنسان لا يستطيع أن يبرر أفعاله بالظروف أو القدر فقط، لأنه هو من يختار موقفه منها. وتظهر هذه الحرية في اتخاذ القرارات المصيرية، مثل اختيار العمل أو نمط الحياة، حيث يتحمل الفرد نتائج اختياراته دون الهروب من المسؤولية.

• الأصالة :

تدعو الوجودية إلى أن يعيش الإنسان حياة أصيلة، أي أن يكون صادقاً مع ذاته في اختياراته، لا خاضعاً للضغوط الاجتماعية أو مقلداً للآخرين. فالأصالة تعني أن يتخذ الفرد قرارات تعبر عن قناعاته الخاصة، مثل اختيار مسار مهني مختلف عما يفرضه المجتمع، لأنه يرى فيه تحقيقاً لذاته.

• الفردانية والتجربة المعيشة :

يتفق أغلب أعلام الفلسفة الوجودية على أن منطلقها الأساسي هو التجربة الوجودية الفردية؛ أي معايشة الإنسان لذاته في القلق والحرية والموت. فهذه التجربة ليست مفهوماً نظرياً بل حالة يعيشها الفرد، وتتخذ صوراً مختلفة : فقد تظهر كقلق وجودي، أو إحساس بالعدم، أو وعي حاد بالزمن والمصير. ومن هنا، لا ينفصل التفكير الوجودي عن المعاناة الذاتية التي تمنح الفلسفة طابعها الشخصي.¹

4- خلاصة :

التيار الوجودي هو فلسفة تجعل من الإنسان الفرد محور التفكير، حيث ترى أن وجوده يسبق ماهيته، أي أنه لا يُولد محدداً سلفاً بل يصنع ذاته عبر أفعاله واختياراته. ومن ثم، تُعد الحرية جوهر هذا الوجود، لكنها حرية ثقيلة لأنها تقترن بالمسؤولية والقلق في مواجهة عالم لا يقدم يقينيات جاهزة. ويركز الوجوديون على التجربة الذاتية المعيشة بدل التفسيرات العقلية المجردة، معتبرين أن الحقيقة تُدرك من خلال ما يعيشه الإنسان من قلق وزمن وموت وعلاقة بالآخرين، لا من خلال المفاهيم النظرية فقط. وهكذا يظهر الإنسان ككائن منخرط في العالم، يبني

¹ - الفلسفة المعاصرة في أوروبا، أ. بوشنسكي، مرجع سابق، ص 213-214.

معناه الخاص وسط وضع إنساني يتسم بالانفتاح وعدم الاكتمال، مما يجعل الوجودية دعوة إلى وعي الذات وتحمل مسؤولية تشكيلها في عالم مفتوح على الإمكانيات.

التيار التطوري – التطورية (Evolutionism)

مقدمة :

ظهر التيار التطوري في سياق التحولات العلمية الكبرى التي شهدتها القرن التاسع عشر، خاصة مع التقدم في علوم الأحياء والجيولوجيا، حيث بدأ التفكير العلمي يتجه نحو تفسير الظواهر الطبيعية والإنسانية بوصفها نتاجاً لمسار طويل من التغير والتدرج، لا كنتائج ثابتة أو معطاة دفعة واحدة. وقد ساهم هذا التحول في زعزعة التصورات التقليدية التي كانت ترى العالم والإنسان ككيانات ثابتة، ليحل محلها تصور ديناميكي قائم على الصيرورة والتطور المستمر.

1- تعريف التيار التطوري :

التيار التطوري هو اتجاه فكري وعلمي يقوم على فكرة أساسية مفادها أن الكائنات الحية، والأنظمة الطبيعية، بل وحتى الظواهر الاجتماعية والثقافية، تتغير وتتطور عبر الزمن وفق قوانين طبيعية، حيث يتم الانتقال من البسيط إلى المركب، ومن الأقل تنظيماً إلى الأكثر تعقيداً. ويرى هذا التيار أن التغير ليس عارضاً، بل هو مبدأ جوهري يحكم الوجود، وأن فهم أي ظاهرة يقتضي تتبع تاريخها ومسار تحولها عبر الزمن.¹

2- الخلفية التاريخية :

تعود الجذور الأولى للفكر التطوري إلى بعض التأملات الفلسفية القديمة التي أشارت إلى فكرة التغير والصيرورة، غير أن التبلور الحقيقي لهذا التيار كان في القرن التاسع عشر مع أعمال العالم الإنجليزي تشارلز داروين، خاصة في كتابه "أصل الأنواع" (1859)، حيث قدم نظرية الانتقاء الطبيعي التي تفسر تطور الكائنات الحية عبر التكيف مع البيئة. كما تأثر التيار التطوري بأعمال هربرت سبنسر، الذي حاول تعميم فكرة التطور لتشمل المجتمع والثقافة، معتبراً أن المجتمعات تمر بمراحل تطورية مشابهة للكائنات الحية. وقد امتد تأثير هذا التيار لاحقاً إلى مجالات متعددة، مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس، حيث أصبح مفهوم التطور إطاراً أساسياً لفهم التغير في الطبيعة والإنسان. نستطيع تحديد أعلام التيار التطوري كالتالي :

• تشارلز داروين (1809-1882)

يُعد تشارلز داروين المؤسس الحقيقي للنظرية التطورية الحديثة، حيث قدّم تفسيراً علمياً متكاملاً لكيفية تطور الكائنات الحية. في كتابه الشهير "أصل الأنواع" (1859)، طرح فكرة الانتقاء الطبيعي، التي تقوم على أن الكائنات الحية تتكاثر بشكل يفوق قدرة البيئة على الاستيعاب، مما يؤدي إلى صراع من أجل البقاء، ولا ينجو إلا الأفراد الأكثر قدرة على التكيف. ومع مرور الزمن، تتراكم هذه التغيرات الصغيرة لتؤدي إلى ظهور أنواع جديدة.

كما وسّع أفكاره في كتاب "أصل الإنسان" (1871)، حيث طبق نظرية التطور على الإنسان، مؤكداً أن الإنسان ليس كائناً منفصلاً عن الطبيعة، بل هو نتيجة مسار تطوري طويل.

• هربرت سبنسر (1820-1903)

يُعتبر هربرت سبنسر من أبرز من عمّم فكرة التطور خارج المجال البيولوجي، حيث نقلها إلى المجتمع والفكر. في كتابه "مبادئ علم الاجتماع" (1876-1896)، رأى أن المجتمع يشبه الكائن الحي، وأنه يتطور من البساطة إلى التعقيد، حيث تتمايز وظائفه وتزداد تخصصاً مع الزمن. كما صاغ في كتابه "مبادئ البيولوجيا" (1864) عبارة "البقاء للأصلح"، التي أصبحت مرتبطة بالتفكير التطوري.

• إرنست هيكل (1834-1919)

يُعد إرنست هيكل من أبرز المدافعين عن الداروينية والمطورين لها. في كتابه "التاريخ الطبيعي للخلق" (1868)، عمل على نشر نظرية داروين وتبسيطها، كما حاول إعطاءها بعداً فلسفياً أوسع.

¹ - الرؤية الكونية الداروينية، عفاف الهدلق، تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، المملكة العربية السعودية، 2022، ص 19-20.

اشتهر بنظريته القائلة أن تطور الفرد يعيد بإيجاز تطور النوع، أي أن مراحل نمو الجنين تعكس مراحل تطور الكائنات عبر التاريخ.

• جوليان هكسلي (1887-1975)

يمثل جوليان هكسلي مرحلة متقدمة من تطور الفكر التطوري، حيث ساهم في بناء ما يُعرف بـ التركيب التطوري الحديث، و في كتابه "التطور، التركيب الحديث" (1942)، جمع بين نظرية داروين وعلم الوراثة الحديث (الوراثة الجينية)، موضحاً كيف تنتقل الصفات وتتغير عبر الأجيال بطريقة علمية دقيقة¹.

• ريتشارد دوكنز (1941-)

يُعد ريتشارد دوكنز من أبرز ممثلي الفكر التطوري المعاصر، وقد اشتهر بكتابه "الجين الأناني" (1976) الذي قدّم فيه تفسيراً جديداً للتطور يقوم على أن الوحدة الأساسية في الانتقاء الطبيعي هي الجين وليس الكائن الحي.

يرى دوكنز أن الكائنات الحية ليست سوى "وسائط" أو "حاملات" للجينات، وأن هذه الجينات تسعى إلى البقاء والتكاثر عبر الأجيال. ومن هنا جاءت فكرة "الأنانية"، التي لا تعني سلوكاً أخلاقياً، بل تشير إلى أن الجينات تعمل وفق منطق البقاء والاستمرار.

كما قدّم مفهوم "الميم (Meme)"، وهو وحدة ثقافية تنتقل بين الأفراد (كالأفكار والعادات)، بطريقة مشابهة لانتقال الجينات، مما وسّع النظرية التطورية لتشمل الثقافة الإنسانية.

3- المبادئ الفكرية للتيار التطوري :

1- مبدأ الصيرورة والتدرّج في التطور:

يقوم هذا المبدأ على أن كل ما في العالم يخضع لتغير مستمر وتدرجي، فلا يوجد كائن أو نظام ثابت، بل كل شيء في حالة صيرورة عبر الزمن. والتطور لا يحدث بشكل فجائي، بل عبر تراكم تغييرات صغيرة تؤدي في النهاية إلى تحولات كبيرة. وهذا يعني أن فهم أي ظاهرة يقتضي تتبع تاريخها ومراحل تشكلها. ويتضح ذلك في تطور الكائنات الحية عبر ملايين السنين من أشكال بسيطة إلى أكثر تعقيداً، وكذلك في تطور اللغة أو الفكر الإنساني، حيث لا تظهر المفاهيم دفعة واحدة بل تتبلور تدريجياً.

2- مبدأ الانتقاء الطبيعي والتكيف (البقاء للأصلح) :

يُعتبر هذا المبدأ، كما صاغه تشارلز داروين وطوّره هربرت سبنسر، عن أن الكائنات التي تمتلك قدرة أكبر على التكيف مع بيئتها هي الأقدر على البقاء والاستمرار. فداخل كل نوع توجد اختلافات بين الأفراد، والبيئة تقوم بانتقاء الأنسب، مما يؤدي إلى استمرار صفاته وانتقالها. ويظهر ذلك في الحيوانات التي تمتلك خصائص كالخفي أو السرعة، مما يزيد فرص نجاتها، كما يظهر في المجال الاجتماعي في المؤسسات أو الشركات التي تتكيف مع التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية فتستمر، بينما تختفي غيرها.

3- مبدأ الوراثة وتراكم الصفات :

يرتبط التطور بقدرة الكائنات على نقل صفاتها عبر الأجيال، حيث تُورث الخصائص التي تساعد على البقاء، فنتراكم تدريجياً وتُحدث تغييراً في النوع. فالتطور ليس مجرد تغير عشوائي، بل هو عملية تراكمية تنتقل فيها الصفات المفيدة من جيل إلى آخر. ويتجلى ذلك في انتقال بعض الصفات الجينية داخل العائلات، مثل مقاومة الأمراض أو الخصائص الجسدية، مما يساهم في استمرار هذه الصفات وتعزيزها عبر الزمن.

4- مبدأ السلف المشترك (وحدة الأصل)

يُعد هذا المبدأ من الأفكار الأساسية في التطورية، حيث يرى تشارلز داروين أن جميع الكائنات الحية تعود في أصلها إلى سلف مشترك، ثم تفرعت عبر مسارات تطورية مختلفة. وهذا يعني أن التنوع الكبير في الكائنات ليس نتيجة خلق منفصل لكل نوع، بل نتيجة تفرّع تدريجي من أصل واحد. ويتضح ذلك في التشابهات البيولوجية بين الكائنات، مثل وجود بنى متشابهة في أجسام الفقاريات (كالهيكل العظمي)، مما يدل على أصل مشترك رغم اختلاف الوظائف.

¹ - الرؤية الكونية الداروينية، عفاف الهدلق، مرجع سابق، ص 48-58.

5- مبدأ الانتقال من البسيط إلى المركب وشمولية التطور :

يرى التيار التطوري أن الأنظمة تتجه من البساطة إلى التعقيد، حيث تتمايز أجزاؤها وتزداد تخصصاً، كما أن هذا المبدأ لا يقتصر على البيولوجيا، بل يشمل المجتمع والفكر. فقد أصبحت فكرة التطور إطاراً عاماً لفهم مختلف الظواهر. ويظهر ذلك في تطور الكائنات الحية من خلايا بسيطة إلى كائنات معقدة، وفي تطور المجتمعات من تنظيمات بدائية إلى أنظمة حديثة متعددة المؤسسات، وكذلك في تطور المعرفة الإنسانية¹.

6- مبدأ شمولية التطور (تعميمه على كل المجالات) :

لم يعد التطور مقتصرًا على المجال البيولوجي، بل أصبح مبدأً عاماً يُستخدم لفهم مختلف الظواهر الطبيعية والإنسانية. فقد تم تعميمه، خاصة مع هريبرت سبنسر، ليشمل المجتمع والثقافة والفكر. ويظهر ذلك في تطور الأنظمة السياسية، وتغير القيم الاجتماعية، وتطور المعرفة الإنسانية، مما يجعل التطور إطاراً شاملاً لتفسير التغير في الطبيعة والإنسان معاً.

4- الخلاصة :

يمثل التيار الدارويني تصورًا علميًا ديناميكيًا للحياة، يقوم على أن الكائنات الحية ليست ثابتة، بل هي نتاج مسار طويل من التغيرات المتراكمة الناتجة عن تفاعلها المستمر مع بيئتها. فالحياة، وفق هذا التصور، تتشكل عبر عملية انتقاء طبيعي تسمح ببقاء الخصائص الأكثر ملاءمة، مما يؤدي مع الزمن إلى ظهور أشكال جديدة أكثر تكيفًا، في إطار وحدة أصلية تربط بين مختلف الكائنات الحية.

ولم يقتصر تأثير هذا التيار على المجال البيولوجي فقط، بل امتد ليشمل العديد من العلوم الاجتماعية والإنسانية، حيث أصبحت فكرة التطور أداة تفسيرية لفهم تحولات المجتمع والثقافة والفكر. فقد استُخدمت مفاهيم مثل التكيف، والتدرج، والتغير التاريخي في تحليل تطور النظم الاجتماعية، وبنية المجتمعات، وحتى أنماط التفكير الإنساني، مما جعل الداروينية إطاراً مرجعياً واسعاً لفهم التحول في الطبيعة والإنسان معاً.

وخلاصة القول، فإن التيار الدارويني لا يقدم مجرد نظرية بيولوجية، بل رؤية شاملة ترى الوجود في حالة تشكّل دائم، حيث يتحدد البقاء والتطور من خلال التفاعل المستمر بين الكائنات وشروط وجودها، وهو ما منح هذا التيار تأثيراً عميقاً وممتداً في مختلف مجالات المعرفة المعاصرة.

¹ - الداروينية، مرتضى فرج، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، العراق، 2017، صفحات 15-17.

تيار التحليل النفسي (Psychanalyse)

مقدمة :

ظهر تيار التحليل النفسي في سياق التحولات العلمية والفكرية التي عرفها أواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأ الاهتمام يتجه نحو فهم الإنسان من الداخل، لا فقط من خلال سلوكه الظاهر، بل عبر أعماقه النفسية الخفية. وقد جاء هذا التيار كرد فعل على التفسيرات الطبية التقليدية التي عجزت عن تفسير بعض الاضطرابات النفسية، خاصة تلك التي لا يظهر لها سبب عضوي واضح. ومن هنا، نشأت الحاجة إلى مقاربة جديدة ترى أن سلوك الإنسان وأفكاره ومشاعره ترتبط ببنى نفسية لاوعية تؤثر فيه دون أن يدركها.

1- تعريف التحليل النفسي :

يمكن تعريف التحليل النفسي من زوايا متعددة:

- هو منهج علمي وضع أسسه سيغموند فرويد، يهدف إلى تفسير السلوك الإنساني انطلاقاً من اللاوعي، أي تلك الرغبات والدوافع المكبوتة التي لا تظهر مباشرة في الوعي .
 - كما يُعد نظرية نفسية ترى أن الشخصية الإنسانية تتكون من تفاعل قوى داخلية (مثل : الهو - الأنا - الأنا الأعلى)، وأن الصراعات بينها هي التي تحدد سلوك الفرد .
 - وهو أيضاً أسلوب علاجي يعتمد على الكشف عن المحتوى اللاوعي من خلال تقنيات مثل التداعي الحر، وتحليل الأحلام، لفهم أسباب الاضطرابات النفسية وعلاجها.¹
- وبذلك يجمع التحليل النفسي بين كونه نظرية في النفس، ومنهجاً في التفسير، وأداة علاجية.

2- الخلفية التاريخية لتيار التحليل النفسي :

• سيغموند فرويد (1856-1939) : مرحلة التأسيس

يُعد سيغموند فرويد المؤسس الفعلي لتيار التحليل النفسي، وقد انطلقت أبحاثه من الممارسة الطبية في فيينا، خاصة من خلال دراسة حالات الهستيريا والعصاب. لاحظ فرويد أن كثيراً من الأعراض النفسية لا ترجع إلى أسباب عضوية، بل إلى رغبات ودوافع مكبوتة تعمل في مستوى اللاشعور (اللاوعي). ومن هنا بنى نظريته الشهيرة التي تفسر الشخصية من خلال الصراع بين الهو والأنا والأنا الأعلى²، كما منح الأحلام مكانة مركزية بوصفها طريقاً إلى فهم الرغبات المكبوتة.

من أهم كتبه : دراسات في الهستيريا (1895)، تفسير الأحلام (1900)، ثلاث مقالات في النظرية الجنسية (1905)، الأنا والهو (1923).

• ألفرد أدلر (1870-1937) : التحليل النفسي الفردي

يُعد ألفرد أدلر من أوائل تلامذة فرويد الذين انفصلوا عنه، حيث رأى أن تفسير السلوك الإنساني لا ينبغي أن يقتصر على الدوافع الجنسية واللاوعي فقط، بل يجب التركيز على الشعور بالنقص والسعي إلى التفوق³. فالفرد، عند أدلر، يسعى باستمرار إلى تجاوز ضعفه وتحقيق ذاته داخل المجتمع. وقد وسّع بذلك التحليل النفسي ليشمل البعد الاجتماعي والذاتي للشخصية.

من أهم كتبه : فهم الطبيعة البشرية (1927)، معنى الحياة (1931).

• كارل غوستاف يونغ (1875-1961) : علم النفس التحليلي

مثّل كارل يونغ مرحلة مهمة في تطور التحليل النفسي، إذ انطلق من أفكار فرويد ثم تجاوزها نحو رؤية أكثر شمولاً. فقد رفض حصر النفس الإنسانية في الرغبات الفردية، وأدخل مفهوم اللاوعي الجمعي، الذي يضم الرموز والصور الأصلية المشتركة بين البشر. كما منح للأسطورة والدين والرمز دوراً أساسياً في فهم النفس، مما وسّع مجال التحليل النفسي ليشمل الثقافة والحضارة⁴.

من أهم كتبه : أنماط نفسية (1921)، الرموز والتحولات (1912)، الإنسان ورموزه (1964).

¹ - في تاريخ نشأة التحليل النفسي، ميكيل بورش، تر : عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 84-85.

² - الأنا والهو، سيغموند فرويد، تر : محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 04، 1998، ص 15-16.

³ - الطبيعة البشرية، ألفريد أدلر، تر : عادل نجيب بشرى، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2005، ص 79.

⁴ - علم النفس التحليلي عند كارل جوستاف يونغ، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2019، صفحات 21-24.

• إريك فروم (1900-1980) : التحليل النفسي الاجتماعي

يُعد إريك فروم من أبرز من ربطوا التحليل النفسي بالفلسفة وعلم الاجتماع. فقد رأى أن فهم النفس لا يكتمل إلا بفهم البنية الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الفرد. ومن هنا درس مفاهيم مثل الحرية، والاغتراب، والحب، وربطها بالبنية النفسية للإنسان الحديث.

من أهم كتبه : الهروب من الحرية (1941)، فن الحب (1956).

• جاك لاكان (1901-1981) : إعادة قراءة التحليل النفسي

يُعد جاك لاكان من أبرز أعلام التحليل النفسي في القرن العشرين، وقد مثّل مرحلة متقدمة في تطور هذا التيار، حيث سعى إلى إعادة قراءة أفكار فرويد في ضوء اللسانيات والبنوية¹. لم يرفض لاكان التحليل النفسي الكلاسيكي، بل أعاد تأويله، مؤكداً أن فهم النفس لا يتم فقط عبر الغرائز، بل أيضاً عبر اللغة والبنية الرمزية التي ينتمي إليها الإنسان.

يرتكز فكره على أطروحة أساسية مفادها أن اللاوعي مُنظَّم مثل اللغة، أي أن الرغبات المكبوتة لا تظهر بشكل مباشر، بل تتجلى عبر رموز وبُنى لغوية تحتاج إلى تأويل². كما قدّم مفهوم مرحلة المرأة، حيث يتشكل وعي الطفل بذاته من خلال التعرف على صورته، حيث "يستجيب لرؤية صورته بإيماءة ابتهاجية"³، مما يعني أن الهوية ليست معطى جاهزاً، بل بناء رمزي يتشكل عبر الآخر.

وقد ميّز لاكان بين ثلاثة أنظمة تحكم التجربة الإنسانية :

• الخيالي : مجال الصور والتمثيلات .

• الرمزي : مجال اللغة والقوانين .

• الواقعي : ما يتجاوز التمثيل ولا يمكن إدراكه بالكامل⁴ .

من أهم أعماله : الكتابات (1966) (Écrits) ، الندوات (1953-1980) (Seminars) .

3- مبادئ التحليل النفسي :

• مبدأ اللاوعي والاحتمية النفسية :

يرى سيغموند فرويد أن الجزء الأكبر من الحياة النفسية يقع في اللاوعي، حيث تختزن الرغبات المكبوتة والذكريات المنسية التي تؤثر في السلوك دون وعي مباشر. ويرتبط بذلك مبدأ الاحتمية النفسية، الذي يؤكد أن كل سلوك أو تصرف له سبب نفسي كامن، حتى وإن بدا عشوائياً. فالأفعال اليومية، مثل زلات اللسان أو النسيان، ليست بلا معنى، بل تعبّر عن دوافع خفية. ويتجلى ذلك في شخص ينسى موعداً مع إنسان لا يرغب في لقائه، أو يتلفظ بكلمة غير مقصودة تكشف رغبة داخلية.

• مبدأ الصراع النفسي والكبت :

يؤكد التحليل النفسي أن الإنسان يعيش صراعاً دائماً بين رغباته الغريزية ومتطلبات الواقع والقيم الأخلاقية، مما يؤدي إلى كبت هذه الرغبات وإقصائها إلى اللاوعي. غير أن هذا الكبت لا يلغيها، بل يجعلها تظهر في أشكال غير مباشرة مثل القلق أو الأحلام أو الأعراض النفسية. ويظهر ذلك في شخص يكبت غضبه في موقف معين، فيتحوّل هذا الغضب لاحقاً إلى توتر أو سلوك عدواني غير مبرر.

• مبدأ البنية النفسية للشخصية :

يفسر فرويد الشخصية من خلال ثلاث قوى متفاعلة : **الهو** الذي يمثل الرغبات الغريزية، و**الأنا** الذي يسعى إلى التوازن وفق الواقع، و**الأنا الأعلى** الذي يجسد القيم والمعايير الأخلاقية. ويتحدد سلوك الإنسان من خلال التفاعل أو الصراع بين هذه المكونات. ويتجلى ذلك في شخص يرغب في تحقيق منفعة شخصية بطريقة غير مشروعة (الهو)، لكنه يتراجع تحت تأثير الضمير (الأنا الأعلى)، فيبحث عن حل مقبول (الأنا).

¹ - جاك لاكان، اللغة، الخيالي، والرمزي، مجموعة مؤلفين، تر : مصطفى المسناوي، منشورات الاختلاف، 2006، ص 9.

² - المرجع نفسه، ص 22.

³ - المرجع نفسه، ص 41.

⁴ - المرجع نفسه، ص 25.

• مبدأ الطفولة والرمزية في التعبير النفسي :

يرى التحليل النفسي أن التجارب المبكرة في الطفولة تؤثر بعمق في تكوين الشخصية، وأن الكثير من الاضطرابات النفسية تعود إلى صراعات لم تُحل في تلك المرحلة. كما أن هذه الصراعات لا تظهر مباشرة، بل تعبّر عن نفسها بطريقة رمزية من خلال الأحلام أو الإسقاط أو السلوك غير المباشر. ويتجلى ذلك في شخص يعاني من خوف غير مبرر يعود إلى تجربة طفولية، أو في حلم يرمز إلى رغبة مكبوتة لم تتحقق.

• مبدأ التحليل والكشف كمنهج للفهم والعلاج :

لا يقتصر التحليل النفسي على تفسير السلوك، بل هو أيضاً منهج علاجي يقوم على كشف المحتوى اللاواعي وجعله واعياً، مما يساعد الفرد على فهم ذاته والتخلص من اضطراباته. ويتم ذلك عبر تقنيات مثل التداعي الحر وتحليل الأحلام. ويتجلى ذلك في مريض يعاني من القلق، وعندما يكتشف جذوره اللاواعية المرتبطة بتجاربه السابقة، يصبح أكثر قدرة على التحكم في حالته النفسية¹.

4- الخلاصة :

يمثل تيار التحليل النفسي أحد أهم التحولات في فهم الإنسان في الفكر الحديث، إذ نقل دراسة السلوك من مستواه الظاهر إلى أعماقه الخفية، مؤكداً مع سيغموند فرويد أن الإنسان لا يتحكم في ذاته بشكل كامل، بل تحكمه قوى لاواعية تتشكل عبر تجاربه وصراعاته النفسية. فالسلوك الإنساني، وفق هذا التيار، ليس مجرد استجابة عقلانية، بل هو نتيجة تفاعل معقد بين الرغبات المكبوتة، والضغوط الاجتماعية، والبنية النفسية التي تتكون منذ الطفولة. وقد تطور هذا التيار عبر إسهامات مفكرين متعددين، حيث وسّع كارل يونغ التحليل النفسي بإدخال مفهوم اللاوعي الجمعي والرموز الثقافية، بينما ركّز ألفرد أدلر على الشعور بالنقص والسعي إلى التفوق، في حين أبرز إريك فروم البعد الاجتماعي والثقافي للشخصية. ومع جاك لاكان، اتخذ التحليل النفسي منحى جديداً يربط اللاوعي باللغة والبنية الرمزية، مما عمّق فهم الذات الإنسانية.

ويرتكز هذا التيار على مجموعة من المبادئ الأساسية، أبرزها أن اللاوعي هو المحدد الخفي للسلوك، وأن الإنسان يعيش صراعات نفسية يتم كبنها لكنها تستمر في التأثير عليه، وأن التجارب المبكرة في الطفولة تلعب دوراً حاسماً في تشكيل الشخصية، كما أن الأحلام والرموز تمثل وسائل للتعبير عن الرغبات المكبوتة. ولا يقتصر التحليل النفسي على التفسير، بل هو أيضاً منهج علاجي يقوم على كشف هذه المضامين اللاواعية بهدف تحقيق التوازن النفسي.

ولم يبقَ تأثير التحليل النفسي محصوراً في علم النفس، بل امتد إلى مجالات متعددة كالأدب، والفلسفة، وعلم الاجتماع، حيث أصبح أداة لفهم الرموز الثقافية، وتحليل السلوك الإنساني، وتفسير الظواهر الاجتماعية.

¹ - طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية، رولان دالبيز، تر : حافظ الجمالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص 253-254.

التيار السلوكي – السلوكية (Behaviorisme)

مقدمة :

ظهر التيار السلوكي في مطلع القرن العشرين كردّ فعل على المناهج النفسية التي ركّزت على الحياة الداخلية والوعي واللاوعي، مثل التحليل النفسي. فقد سعى هذا الاتجاه إلى جعل علم النفس علمًا موضوعيًا دقيقًا يقوم على الملاحظة والتجريب، متأثرًا بتقدم العلوم الطبيعية. ومن هنا، تم تحويل الاهتمام من دراسة الحالات الذهنية الداخلية إلى دراسة السلوك الظاهر القابل للملاحظة والقياس، باعتباره المجال العلمي الوحيد الذي يمكن التحقق منه تجريبيًا.

1- تعريف التيار السلوكي :

- يُعرّف التيار السلوكي بأنه اتجاه في علم النفس يركز على دراسة السلوك الإنساني والحيواني من خلال العلاقة بين المثير والاستجابة، دون اللجوء إلى تفسيره بعوامل داخلية غير قابلة للملاحظة .
- وهو أيضًا منهج علمي يسعى إلى تفسير التعلم والتكيف من خلال قوانين تجريبية يمكن التحقق منها، مثل قوانين التعزيز والتكرار .
- كما يُعد نظرية ترى أن السلوك مكتسب، وأن الإنسان يتشكل عبر الخبرة والتعلم نتيجة تفاعله مع البيئة¹ .
- وبذلك يقوم التيار السلوكي على جعل علم النفس علمًا تجريبيًا قائمًا على الملاحظة والقياس والتجربة.

2- الخلفية التاريخية وتطور التيار السلوكي

• إيفان بافلوف (1849-1936) : التأسيس التجريبي

يُعد إيفان بافلوف من الرواد الأوائل الذين مهدوا لظهور السلوكية من خلال تجاربه على المنعكسات الشرطية، فقد بيّن أن الكائن الحي يمكن أن يتعلم الربط بين مثيرين، بحيث يصبح المثير المحايد قادرًا على إحداث استجابة معينة بعد التكرار² .

من أهم أعماله : المنعكسات الشرطية (1927).

• جون واطسون (1878-1958) : تأسيس السلوكية

يُعد جون واطسون المؤسس الرسمي للتيار السلوكي، حيث أعلن في بداية القرن العشرين أن علم النفس يجب أن يدرس السلوك فقط، وأن يتخلّى عن دراسة الوعي. وقد أكد أن السلوك يمكن تفسيره من خلال علاقة المثير-الاستجابة، وأن البيئة هي العامل الأساسي في تشكيل الإنسان³ .

من أهم أعماله : علم النفس كما يراه السلوكي (1913)، السلوكية (1925).

• بورهوس فريدريك سكينر (1904-1990) : السلوكية الحديثة

يُعد بورهوس فريدريك سكينر من أبرز ممثلي السلوكية الحديثة، حيث طوّر مفهوم الإشرط الإجرائي، الذي يركز على دور التعزيز والعقاب في تشكيل السلوك. وقد اعتبر أن السلوك يمكن التحكم فيه من خلال تنظيم البيئة.

من أهم أعماله : سلوك الكائنات الحية (1938)، ما وراء الحرية والكرامة (1971)⁴ .

3- مبادئ التيار السلوكي :

• السلوك استجابة لمثيرات خارجية :

يرى التيار السلوكي أن سلوك الإنسان ليس تعبيرًا عن باطن خفي، بل هو مجموعة من الاستجابات التي تصدر عن الكائن الحي نتيجة مؤثرات خارجية. فالإنسان يتفاعل مع محيطه كما تتفاعل بقية الكائنات، حيث يثيره عامل خارجي فيستجيب له بشكل معين، ويتجلى ذلك في استجابة الطالب لصوت الجرس بالخروج من القسم، أو شعور

¹ - السلوك الإنساني (ثلاث نظريات في فهمه)، روبرت د. ناي، تر : أحمد اسماعيل صبح و منير فوزي، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، 2001، ص 99-100.

² - مذاهب علم النفس، علي زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 179-180.

³ - السلوك الإنساني، روبرت د. ناي، مرجع سابق، ص 98.

⁴ - المرجع نفسه، ص 195.

شخص بالخوف عند سماع صوت مفاجئ؛ فالسلوك هنا ليس نابغاً من الداخل، بل هو رد فعل مباشر على مثير خارجي.

• اختزال الحياة النفسية إلى سلوك قابل للملاحظة :

تؤكد السلوكية أن ما يُسمى بالحالات النفسية (كالتفكير أو الشعور) لا يمكن دراسته علمياً إلا إذا تُرجم إلى سلوك ظاهر. لذلك فهي ترفض الاعتماد على مفاهيم مثل الوعي أو النية، وتستبدلها بالملاحظة والتجربة. فالتفكير، في هذا المنظور، ليس عملية غامضة، بل يمكن اعتباره نشاطاً لغوياً أو حركياً داخلياً (مثل الكلام الصامت أو حركات عضلية دقيقة). ولهذا يدرس السلوكيون ما يمكن تسجيله وملاحظته فقط.

• التعلم نتيجة التكرار والاقتران :

يرتبط السلوك بعملية التعلم التي تتم عبر تكرار العلاقة بين المثير والاستجابة، بحيث يؤدي التكرار إلى تثبيت السلوك. فالكائن الحي يكتسب عاداته من خلال الخبرة المتكررة في بيئته. ويتجلى ذلك في تعود الطفل على سلوك معين (كالتحية أو النظام) نتيجة تكراره، أو في تعلم الحيوان الاستجابة لإشارة معينة بعد ربطها بالمكافأة.

• الإنسان ككائن متكيف مع البيئة :

تنظر السلوكية إلى الإنسان بوصفه كائناً يسعى إلى التكيف مع محيطه، حيث يعمل جهازه العصبي على ترجمة المؤثرات إلى استجابات مناسبة. فالسلوك ليس إلا وسيلة لضمان التكيف والبقاء، ويتجلى ذلك في تكيف الفرد مع قوانين المجتمع أو مع ظروف العمل، حيث يغيّر سلوكه بما يتناسب مع متطلبات البيئة التي يعيش فيها.

• وحدة السلوك بين الإنسان والحيوان :

لا ترى السلوكية فرقاً جوهرياً بين الإنسان والحيوان من حيث طبيعة السلوك، إذ يمكن دراسة كليهما وفق نفس القوانين. فالسلوك، في الحالتين، يخضع لنفس آليات التعلم والاستجابة. ويتجلى ذلك في اعتماد التجارب على الحيوانات (كالكلاب أو الفئران) لاستخلاص قوانين عامة يمكن تطبيقها على الإنسان، مثل قوانين التعلم والتعزيز.

• نفي الوعي كموضوع علمي مستقل :

ترفض السلوكية اعتبار الوعي موضوعاً علمياً قائماً بذاته، وترى أنه لا يمكن دراسته إلا من خلال مظاهره السلوكية. فكل ما لا يمكن ملاحظته أو قياسه يُستبعد من الدراسة العلمية. ومن هنا، يصبح علم النفس علماً للسلوك فقط، لا للذهن أو الروح، ويعتمد على المنهج التجريبي بدل التأمل الفلسفي.¹

4- الخلاصة :

يمثل التيار السلوكي تحولاً حاسماً في علم النفس، حيث أعاد تعريف موضوعه ومنهجه، فبدل الاهتمام بالحياة النفسية الباطنية، ركّز مع جون واطسون ومن تبعه على السلوك الظاهر القابل للملاحظة والقياس باعتباره المجال الوحيد الذي يمكن دراسته علمياً. ويرى هذا التيار أن سلوك الإنسان ليس ناتجاً عن نوايا داخلية غامضة، بل هو استجابة لمثيرات بيئية، تتشكل عبر التعلم والتكرار والتعزيز، كما بيّنت تجارب إيفان بافلوف وبور هوس فريدريك سكينر.

ومن ثم، يفهم الإنسان في هذا التصور بوصفه كائناً يتكيف مع محيطه، وتُفسّر أفعاله من خلال علاقات موضوعية بين المثير والاستجابة، دون الحاجة إلى افتراضات ميتافيزيقية حول الوعي أو النفس. وقد أتاح هذا المنهج للسلوكية أن تسهم بقوة في تطوير مجالات تطبيقية مثل التربية والعلاج السلوكي، حيث أصبح من الممكن تعديل السلوك والتنبؤ به عبر التحكم في الظروف البيئية.

¹ - مذاهب علم النفس، علي زيعور، مرجع سابق، ص 189.

التيار البراغماتي – البراغماتية (Pragmatisme)

مقدمة :

ظهر التيار البراغماتي في سياق التحولات الفكرية والعلمية التي شهدتها العالم الغربي في أواخر القرن التاسع عشر، حيث برزت الحاجة إلى فلسفة تتجاوز الجدل النظري المجرد، وتربط الفكر بالفعل والحياة العملية. فبدل البحث عن حقائق ثابتة ومطلقة، اتجه البراغماتيون إلى اعتبار الفكر أداة لخدمة الإنسان، ومعياره هو النجاح والفاعلية في الواقع.

1- تعريف التيار البراغماتي :

- يُعرّف التيار البراغماتي بأنه اتجاه فلسفي يرى أن قيمة الأفكار تُقاس بنتائجها العملية، أي بما تحققه من نفع وفائدة في الواقع .
 - وهو أيضًا مذهب يعتبر أن الحقيقة ليست ثابتة في ذاتها، بل هي ما يثبت نجاحه بالتجربة ويؤدي إلى حل المشكلات .
 - كما ينظر إلى الفكر بوصفه وسيلة للعمل وليس غاية في ذاته، فالأفكار أدوات تُستخدم لتوجيه السلوك والتكيف مع الحياة¹ .
- ولذلك تُعرف البراغماتية بأنها فلسفة العمل والتجربة والمنفعة.

2- الخلفية التاريخية وتطور التيار البراغماتي :

- تشارلز ساندرز بيرس (1839-1914) : التأسيس الفلسفي
يُعد تشارلز ساندرز بيرس المؤسس الأول للبراغماتية، حيث وضع ما يُعرف بـ "المبدأ البراغماتي"، الذي ينص على أن معنى الفكرة يتحدد من خلال آثارها العملية الممكنة فالمفاهيم لا تُفهم إلا من خلال نتائجها في التجربة² .
من أهم أعماله : مقالاته حول "توضيح أفكارنا" (1878).
- ويليام جيمس (1842-1910) : نشر وتوسيع المذهب
ساهم ويليام جيمس في نشر البراغماتية وتبسيطها، حيث اعتبر أن الحقيقة هي ما يثبت نفعه في التجربة الفردية . وأكد أن الأفكار تُقيّم بقدرتها على إرضاء حاجات الإنسان وتحقيق التوازن في حياته.
من أهم أعماله : البراغماتية (1907)، معنى الحقيقة (1909).
- جون ديوي (1859-1952) : التطبيق التربوي والاجتماعي
طوّر جون ديوي البراغماتية في اتجاه عملي، خاصة في مجالات التربية والمجتمع، حيث رأى أن التفكير هو أداة لحل المشكلات، وأن التعلم يتم من خلال التجربة والخبرة. وقد جعل من البراغماتية فلسفة للحياة اليومية.
من أهم أعماله : الديمقراطية والتربية (1916)، الخبرة والطبيعة (1925)³ .

3- مبادئ التيار البراغماتي :

• الحقيقة ما ينجح عملياً (معيّار المنفعة) :

تري البراغماتية، خاصة عند ويليام جيمس، أن الحقيقة لا تُقاس بمطابقتها لواقع ثابت، بل بقدرتها على تحقيق نتائج نافعة؛ فالفكرة تكون "صادقة" بقدر ما تنجح في حل المشكلات. فعندما يعتمد طبيب علاجاً معيناً ويلاحظ تحسن حالة المرضى، فإن نجاح هذا العلاج في الواقع هو ما يمنحه صفة الحقيقة، لا مجرد كونه مستنداً إلى نظرية سابقة.

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 203-204.

² - الفلسفة البراغماتية (أصولها ومبادئها)، علي المرهج، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ص 24.

³ - المرجع نفسه، ص 18.

• الفكر أداة للعمل (الأداتية) :

يؤكد جون ديوي أن التفكير ليس نشاطاً نظرياً معزولاً، بل هو وسيلة عملية لمواجهة مشكلات الحياة؛ فالأفكار تُستخدم كأدوات لتوجيه السلوك. فمثلاً، حين يواجه مهندس مشكلة في تصميم بناية، فإنه يضع عدة حلول ممكنة ويختبرها حتى يصل إلى الحل الأكثر فاعلية، وبذلك يصبح التفكير نفسه عملية تجريبية مرتبطة بالفعل.

• معنى الفكرة في نتائجها (مبدأ بيرس) :

يرى تشارلز ساندرز بيرس أن معنى أي مفهوم لا يتحدد إلا من خلال آثاره العملية الممكنة؛ أي أننا لا نفهم الفكرة إلا إذا عرفنا كيف تظهر في الواقع. فمثلاً، مفهوم "العدالة" لا يُفهم من خلال تعريف نظري مجرد، بل من خلال تطبيقاته الفعلية لتحقيق المساواة بين الأفراد، وضمان الحقوق، وتنظيم العلاقات داخل المجتمع.

• المعرفة عملية متغيرة :

تؤكد البراغماتية أن المعرفة ليست نهائية أو مطلقة، بل تتطور باستمرار مع تغير التجربة الإنسانية؛ فما نعدّه صحيحاً اليوم قد يُعدّل غداً إذا ظهرت نتائج أفضل. ويتضح ذلك في تطور العلوم الطبية، حيث تتغير طرق العلاج مع تقدم الأبحاث، مما يدل على أن الحقيقة العلمية نفسها خاضعة للمراجعة والتجربة.

• التجربة أساس المعرفة :

تنطلق البراغماتية من أن التجربة هي المصدر الأول لكل معرفة، وأن الإنسان يتعلم من خلال التفاعل المباشر مع الواقع. فالطفل، مثلاً، لا يتعلم المشي عبر القواعد النظرية، بل من خلال المحاولة والخطأ حتى ينجح، وهو ما يبين أن المعرفة تُبنى تدريجياً عبر الخبرة الحية¹.

4- الخلاصة :

يُعيد التيار البراغماتي، كما بلوره تشارلز ساندرز بيرس وطوره ويليام جيمس وجون ديوي، تعريف الحقيقة والمعرفة انطلاقاً من معيار الفاعلية؛ فالفكرة تُقاس بقدرتها على الإسهام في حل المشكلات، ومعناها يتحدد بآثارها العملية، والمعرفة تظل قابلة للمراجعة كلما تغيرت نتائج التجربة. بهذا المعنى، يتحول التفكير إلى أداة إجرائية موجهة للفعل، لا غاية نظرية مكتفية بذاتها.

¹ - الفلسفة البراغماتية، علي المرهج، مرجع سابق، ص 26-27.

التيار الظاهري – الظواهرية (Phénoménologie)

مقدمة :

ظهرت الفلسفة الظاهرية (الفينومينولوجيا) في مطلع القرن العشرين بوصفها محاولة لإعادة تأسيس الفلسفة على أساس جديد يركز على تجربة الوعي كما تُعطى مباشرة، بعيداً عن الافتراضات المسبقة والنظريات الجاهزة. وقد سعت إلى تجاوز النزاع بين النزعات العقلانية والتجريبية، من خلال العودة إلى “الأشياء ذاتها”، أي إلى كيفية ظهورها في الشعور الإنساني. وبهذا المعنى، لم تعد الفلسفة تبحث عما وراء الظواهر، بل في كيفية حضورها للوعي وطريقة تشكل معناها داخله.

1- تعريف الفلسفة الظاهرية :

- تُعرّف الفلسفة الظاهرية، كما أسسها إدموند هوسرل، بأنها منهج فلسفي يهدف إلى وصف الظواهر كما تُعاش في الوعي، دون إضافة تأويلات خارجية أو افتراضات مسبقة.
- وهي أيضاً اتجاه فلسفي يركز على دراسة بنية الوعي وقصديته، أي كون الوعي دائماً متجهاً نحو موضوع ما (كل وعي هو وعي بشيء).
- كما تُعد منهجاً يقوم على ما يُسمى بالردّ الظاهري (الإيبوخي)، أي تعليق الحكم على وجود الأشياء في الواقع، من أجل التركيز على كيفية ظهورها في التجربة الشعورية.
- ويمكن تعريفها كذلك بأنها فلسفة تسعى إلى الكشف عن المعاني الأصلية للتجربة الإنسانية من خلال تحليل الخبرة المباشرة، بدل تفسيرها تفسيراً علمياً أو ميتافيزيقياً¹.

2- الخلفية التاريخية وتطور الفلسفة الظاهرية :

• إدموند هوسرل (1859-1938) : مرحلة التأسيس

يُعد إدموند هوسرل المؤسس الحقيقي للفلسفة الظاهرية، وقد ظهرت أفكاره في سياق نقده للنزعة النفسية التي كانت تختزل المعرفة في العمليات الذهنية. سعى هوسرل إلى تأسيس فلسفة صارمة تقوم على وصف الظواهر كما تُعطى في الوعي، مخلصاً إياها من النزعة العقلانية والتجريبية²، مؤكداً أن كل معرفة تنطلق من الخبرة الشعورية المباشرة، كما وضع مفاهيم أساسية مثل (القصديّة) أي أن الوعي دائماً وعي بشيء ما، و(الردّ الظاهري) الذي يعني تعليق الحكم على الواقع للتركيز على كيفية ظهوره للوعي.

من أهم كتبه : البحوث المنطقية (1901-1900)، أفكار ممتدة لفينومينولوجيا خالصة (1913)، التأملات الديكارتية (1931).

• مارتن هايدغر (1889-1976) : التحول الوجودي

مع مارتن هايدغر، انتقلت الظاهرية من دراسة الوعي إلى تحليل الوجود الإنساني (الدازين). فقد انتقد هوسرل لاهتمامه المفرط بالوعي، وركز بدل ذلك على وجود الإنسان في العالم، معتبراً أن الفهم لا يتم عبر التأمل فقط، بل من خلال الانخراط في العالم³، وهكذا أصبحت الظاهرية عنده فلسفة وجودية تهتم بمعاني الوجود والزمان.

من أهم كتبه : الوجود والزمان (1927).

• موريس ميرلو-بونتي (1908-1961) : ظاهرية الجسد

طوّر موريس ميرلو-بونتي الظاهرية بإبراز دور الجسد في الإدراك، حيث رفض الفصل بين العقل والجسد، واعتبر أن الإنسان يدرك العالم من خلال جسده بوصفه كائناً حياً في العالم⁴. وهكذا أصبحت التجربة الحسية والجسدية أساساً لفهم الواقع.

من أهم كتبه : فينومينولوجيا الإدراك (1945).

¹ - الموسوعة الفلسفية المختصرة، فؤاد كامل و آخرون، مرجع سابق، ص 415-416.

² - الفلسفة علماً صارماً، إدموند هوسرل، تر : محمد رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص 23

³ - تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة، محمد بن سباع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، 2015، ص 72

⁴ - المرجع نفسه، ص 134 - 135.

• جان بول سارتر (1905-1980) : الظواهرية والحرية

مزج جان بول سارتر بين الظواهرية والوجودية، حيث استخدم منهجها لتحليل الحرية والوعي والعدم. فقد اعتبر أن الإنسان كائن حر يصنع ذاته من خلال أفعاله، وأن الوعي ليس جوهرًا ثابتًا بل هو انفتاح دائم على العالم. من أهم كتبه : تعالي الأنا موجود (1934)، نظرية في الانفعالات (1939)، التخيل (1940)، الوجود والعدم (1943).

ولقد امتدت الظواهرية إلى مجالات متعددة، مثل علم النفس (الظواهرية النفسية)، وعلم الاجتماع، واللسانيات، بل أثرت أيضًا في التيارات الوجودية والتأويلية. كما ساهمت في إعادة الاعتبار للتجربة الذاتية في فهم الإنسان، في مواجهة النزعات الوضعية والعلموية.

3- مبادئ التيار الظاهري :

• مبدأ العودة إلى الأشياء ذاتها :

يؤكد إدموند هوسرل أن الفلسفة يجب أن تعود إلى الظواهر كما تُعطى في التجربة المباشرة، دون تحميلها تفسيرات مسبقة¹. فبدل البحث عما وراء الظاهرة، ينبغي وصفها كما تظهر للوعي. فمثلاً، عند رؤية شجرة، لا نهتم بتفسيرها العلمي أو البيولوجي، بل بكيفية ظهورها لنا : لونها، شكلها، إحساسنا بها، أي التجربة الحية كما نعيشها.

• مبدأ القصدية (Intentionality) :

يرى هوسرل أن كل وعي هو وعي بشيء، أي أن الوعي ليس منعزلاً، بل دائم التوجه نحو موضوع. فالإنسان لا يفكر في الفراغ، بل في شيء معين. فمثلاً، عندما يخاف شخص، فإن خوفه يكون موجّهًا نحو شيء محدد (خطر، موقف، شخص)، مما يبيّن أن الوعي مرتبط دائماً بموضوعه.

• مبدأ الردّ الظاهري (تعليق الحكم) :

يقوم المنهج الظاهري على تعليق الحكم على وجود الأشياء في الواقع (الإيبوخي)، أي عدم التساؤل عما إذا كانت الأشياء موجودة فعلاً، والتركيز فقط على كيفية ظهورها في الوعي². فمثلاً، عندما نحلم، لا نسأل إن كان الحلم حقيقياً، بل نصف ما نراه ونشعر به داخل التجربة نفسها.

• مبدأ وصف التجربة بدل تفسيرها :

تركّز الظواهرية على الوصف الدقيق للتجربة بدل تفسيرها تفسيراً علمياً أو سببياً عن طريق الاستقراء. فهي لا تبحث عن أسباب الظاهرة، بل عن كيف نعيشها كخبرة ماهوية داخل وعينا³، فمثلاً، بدل تفسير الحزن بيولوجياً (هرمونات أو كيمياء الدماغ)، تصف الظواهرية كيف يُعاش الحزن : شعور بالثقل، انغلاق، فقدان معنى.

4- الخلاصة :

أعاد التيار الظاهري، كما بلوره إدموند هوسرل وتطوّر مع مارتين هايدغر وموريس ميرلو-بونتي وجان بول سارتر، توجيه التفكير الفلسفي نحو تحليل كيفية تشكّل المعنى داخل التجربة الإنسانية بدل البحث عن حقائق مفارقة أو تفسيرات اختزالية. وبذلك قدّم منهجاً دقيقاً لوصف الخبرة كما تُعاش، يقوم على تفكيك علاقة الوعي بالعالم، وإبراز دور القصدية، والجسد، والوجود المعيش في إنتاج الدلالة.

أما تأثيره، فكان عميقاً ومتعدد المجالات:

• في علم النفس : أسهم في نشوء المقاربات الظواهرية والوجودية التي تركز على فهم تجربة الفرد من الداخل، بدل اختزالها في تفسيرات سلوكية أو بيولوجية .

¹ - الفلسفة المعاصرة في أوروبا، أ. بوشنسكي، مرجع سابق، ص 184.

² - الفينومينولوجيا عند هوسرل، سماح رافع محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991، ص 145.

³ - الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسرل، يوسف سليم سلامة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص 15.

- في الفلسفة المعاصرة :مهّد لظهور تيارات كبرى مثل الوجودية والتأويلية، وأعاد طرح سؤال المعنى والذات والوجود بطريقة جديدة .
- في العلوم الإنسانية :أثر في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من خلال الاهتمام بالمعنى الذي يمنحه الأفراد لأفعالهم داخل العالم الاجتماعي .
- في الأدب والنقد :وجّه التحليل نحو تجربة القارئ والكاتب، والتركيز على كيفية تشكّل المعنى داخل النص بدل البحث عن تفسير خارجي جاهز .
- في دراسة الإدراك :أعاد الاعتبار لدور الجسد والتجربة الحسية في فهم العالم، مما أثر في مجالات كالفلسفة المعاصرة للذهن وعلوم الإدراك.

التيار التأويلي – التأويلية (Herméneutique)

مقدمة :

يقوم التيار التأويلي على فكرة أن العالم الإنساني ليس مجرد وقائع مادية، بل هو عالم مشحون بالدلالات والمعاني. لذلك لا يكفي تفسير الظواهر كما في العلوم الطبيعية، بل يجب فهمها وتأويلها في ضوء سياقها اللغوي والتاريخي. ومن هنا تحوّل التأويل من مجرد أداة لشرح النصوص إلى منهج فلسفي شامل لفهم الإنسان وتجربته.

1- تعريف الفلسفة التأويلية :

التأويل في أصله هو الرجوع باللفظ إلى معناه الحقيقي أو المقصود منه. وفي الاصطلاح، هو صرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر يحتمله، بشرط أن يكون هذا المعنى موافقاً للكتاب والسنة.¹ وقد بيّن الجرجاني أن التأويل هو نقل اللفظ من دلالاته الظاهرة إلى دلالة محتملة يعضدها دليل، بحيث لا يكون هذا الانتقال اعتباطياً بل مؤسساً على انسجام مع النصوص الشرعية. أما ابن رشد فيرى أن التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، وفق ما تسمح به أساليب اللغة العربية في التجويز، كالتشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من وجوه البلاغة. وفي السياق الكلامي، استخدم التأويل خاصة عند علماء اللاهوت لتفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً أو مجازياً يكشف عن معانٍ أعمق من ظاهرها. وعليه، فالتأويل يمثل منهجاً للتوفيق بين ظاهر النص وباطنه، عبر البحث عن المعنى الأعمق الذي لا يظهر مباشرة، دون الخروج عن أصول اللغة أو مقاصد الشريعة.² كذلك، فالتأويل (أو الهرمنيوطيقا) هو عملية تفسيرية تهدف إلى الكشف عن المعاني الخفية وراء ظاهر النص، اعتماداً على اللغة بوصفها وسيلة لنقل الدلالة وتوضيحها. ويرتبط هذا المفهوم تاريخياً بفكرة الوساطة، حيث يقوم المفسر بدور نقل المعنى من مستواه الغامض إلى مستوى واضح قابل للفهم. ولا يقتصر التأويل على شرح الألفاظ فقط، بل يتجاوز ذلك إلى عملية انتقال من الغموض إلى الوضوح، ومن المعنى الضمني إلى المعنى المعلن، بحيث يتحقق الفهم عبر تفاعل مستمر بين النص وقارئه. وفي معناه الواسع، يدل التأويل على فعل التفسير الذي يسعى إلى إيصال المعنى وتبيينه، سواء في النصوص اللغوية أو الدينية أو الفكرية، من خلال إعادة صياغته بما يتناسب مع سياقه. وبذلك، فإن التأويل هو ممارسة تفسيرية تقوم على استخدام اللغة كوسيط، بهدف الكشف عن المعاني العميقة والانتقال من الدلالة الظاهرة إلى دلالات أكثر عمقاً ووضوحاً.³

2- الخلفية التاريخية للتيار التأويلي وتطوره :

• فريدريش شلايرماخر (1768-1834) : التأسيس العام للتأويل

يُعد فريدريش شلايرماخر المؤسس الأول للتأويل الحديث، حيث نقل التأويل من كونه مجرد أداة لتفسير النصوص الدينية إلى منهج عام لفهم كل النصوص والخطابات. وقد ركّز على أن الفهم يمر عبر بعدين متكاملين : فهم لغوي يتعلق ببنية النص، وفهم نفسي يسعى إلى إعادة بناء نية المؤلف.³ كما أكد أن عملية الفهم ليست مباشرة، بل تتطلب جهداً تأويلياً يعيد بناء المعنى في سياقه.

من أهم أعماله : في التأويل (محاضرات بين 1805-1833)، في الدين (1799).

• فيلهلم دلتاي (1833-1911) : تأسيس التأويل في العلوم الإنسانية

طوّر فيلهلم دلتاي التأويلية وجعلها الأساس المنهجي للعلوم الإنسانية، حيث ميّز بين التفسير (Erklären) في العلوم الطبيعية والفهم (Verstehen) في العلوم الإنسانية. وقد رأى أن الظواهر الإنسانية لا يمكن إخضاعها لقوانين عامة، بل يجب فهمها من خلال سياقها التاريخي وتجربة الإنسان الداخلية.

¹ - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، مرجع سابق، ص 234.

² - أصول التأويلية، جورج غوسدورف، تر : فتحي إنقزو، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، بيروت، 2018، ص 43.

³ - التأويلية، جان غرونديان، تر : جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص 24.

من أهم أعماله : مقدمة في العلوم الإنسانية (1883)، بناء العالم التاريخي في العلوم الإنسانية (نُشر بعد وفاته 1910-1911).

• مارتن هايدغر (1889-1976) : التحول الأنطولوجي للتأويل

مع مارتن هايدغر، شهدت التأويلية تحولاً جذرياً، إذ لم تعد مجرد منهج لفهم النصوص، بل أصبحت بنية أساسية للوجود الإنساني. فالإنسان، بوصفه "كائنًا في العالم"، يفهم الواقع دائماً من خلال تأويل مسبق نابع من خبرته وتاريخه¹. وهكذا أصبح الفهم فعلاً وجودياً لا يمكن فصله عن حياة الإنسان. من أهم أعماله : الكينونة والزمان (1927).

• هانز-غيورغ غادامير (1900-2002) : التأويلية الفلسفية

طوّر هانز-غيورغ غادامير التأويلية في اتجاه فلسفي شامل، حيث ركّز على أن الفهم يتم عبر الحوار بين القارئ والنص، وأن المعنى ليس ثابتاً بل يتجدد عبر ما سماه "اندماج الآفاق". كما أكد أن كل فهم مشروط بالتاريخ والثقافة، ولا يمكن بلوغ فهم موضوعي مطلق². من أهم أعماله : الحقيقة والمنهج (1960).

• بول ريكور (1913-2005) : التأويل بين الفهم والتفسير

يُعد بول ريكور من أبرز ممثلي التأويلية المعاصرة، حيث سعى إلى التوفيق بين التفسير والفهم، معتبراً أن النص يحتاج إلى تحليل بنيوي³، ثم تأويل يكشف معانيه العميقة. كما اهتم بالرمز واللغة والسرد في بناء المعنى. من أهم أعماله : فلسفة الإرادة (1950)، صراع التأويلات (1969)، الزمان والسرد (1983-1985).

3- مبادئ التيار التأويلي :

• الفهم كفعل تأويلي :

يرى التيار التأويلي أن الفهم ليس عملية تلقّية مباشرة للمعنى، بل هو نشاط تأويلي يبذله القارئ أو الفاعل لإعادة بناء الدلالة. فالمعنى لا يكون حاضراً بشكل جاهز داخل النص أو الظاهرة، بل يتشكل عبر التفاعل معها. لذلك فإن كل قراءة هي في الحقيقة إعادة إنتاج للمعنى. فمثلاً، عندما يقرأ شخصان نفس النص الأدبي، قد يفهمانه بشكل مختلف، لأن كل واحد يستحضر خبراته وخلفيته الثقافية في عملية الفهم، مما يجعل التأويل متعددًا لا أحاديًا.

• تاريخية الفهم وسياقاته :

يؤكد هانز-غيورغ غادامير أن الإنسان لا يفهم الأشياء من موقع محايد، بل من داخل أفق تاريخي وثقافي محدد. فالفهم يتأثر بالزمان والمكان والتجربة، وهذا يعني أن المعاني ليست ثابتة عبر العصور. فعندما نقرأ نصاً فلسفياً قديماً، فإننا لا نستعيد معناه الأصلي فقط، بل نعيد تفسيره في ضوء قضايا عصرنا، مما يجعل الفهم عملية متجددة ترتبط بتحول السياقات.

• الدائرة التأويلية (العلاقة بين الكل والجزء) :

يقوم الفهم التأويلي على حركة مستمرة بين الكل والجزء، حيث لا يمكن فهم جزء من النص بمعزل عن السياق العام، ولا يمكن فهم الكل دون تحليل أجزائه. هذه العلاقة ليست مغلقة، بل هي عملية ديناميكية يتطور فيها الفهم تدريجياً. فمثلاً، عند قراءة نص فلسفي معقد، يبدأ القارئ بفهم أولي عام، ثم يعود إلى التفاصيل ليعيد تفسيرها، وبعد ذلك يعيد بناء فهمه الكلي في ضوء هذه التفاصيل، وهكذا يتعمق الفهم مع كل قراءة.

• أولوية الفهم على التفسير السببي :

يُميّز فيلهم دلتاي بين التفسير الذي يبحث عن الأسباب والقوانين، والفهم الذي يسعى إلى إدراك المعنى. ففي العلوم الإنسانية، لا يكفي أن نفس الظواهر كما نفس الظواهر الطبيعية، بل يجب أن نفهمها من الداخل. فمثلاً، لا يمكن تفسير سلوك إنساني كالتضحية فقط من خلال عوامل بيولوجية أو مادية، بل ينبغي فهمه في ضوء القيم والدوافع والمعاني التي يحملها الفاعل.

¹ - التأويلية، جان غروندان، مرجع سابق، ص 43.

² - المرجع نفسه، ص 61-62.

³ - المرجع نفسه، ص 80.

• اللغة كأفق للفهم :

يؤكد التأويليون أن الفهم لا يحدث خارج اللغة، بل داخلها، فهي ليست مجرد أداة للتعبير، بل الإطار الذي يتشكل فيه المعنى نفسه. فكل تجربة إنسانية تُفهم من خلال اللغة التي تعبّر عنها، وهذا يعني أن تغيير اللغة يؤدي إلى تغيير المعنى. فمثلاً، استخدام كلمات مختلفة لوصف نفس الحدث قد يغيّر طريقة فهمه، لأن اللغة توجه إدراكنا وتحدد أفق تأويلنا.

4- الخلاصة :

يقوم التيار التأويلي على أن الفهم الإنساني ليس عملية مباشرة أو محايدة، بل هو فعل تأويلي مركّب يتشكل من خلال تفاعل الإنسان مع النصوص والظواهر داخل سياق لغوي وتاريخي محدد. فالمعنى لا يوجد جاهزاً في الأشياء، بل يُبنى تدريجياً عبر خبرة القارئ وثقافته، وهو ما يجعل كل فهم قابلاً للتجدد والتعدد. وقد بيّن فريديش شلايرماخر أن التأويل يبدأ بمحاولة فهم اللغة وقصد المؤلف، ثم وسّعه فيلهلم دلتاي ليصبح منهجاً خاصاً بالعلوم الإنسانية قائماً على الفهم بدل التفسير، قبل أن يتحول مع مارتين هايدغر إلى بُعد وجودي يجعل التأويل جزءاً من طريقة وجود الإنسان في العالم، ويُطوّر لاحقاً مع هانز-غيورغ غادامير بوصفه عملية حوارية تتشكل داخل اللغة والتاريخ.

ومن خلال ذلك، يبرز أن الفهم يتحقق عبر حركة دائمة بين الكل والجزء، ويتأثر بخلفية القارئ، ويتجسد داخل اللغة التي تشكّل أفق المعنى، مما يجعل المعرفة الإنسانية غير نهائية ومفتوحة على التأويل المستمر. وقد كان لهذا التصور تأثير واسع في العلوم الإنسانية، حيث انتقل الاهتمام من البحث عن القوانين الثابتة إلى فهم المعاني، كما أثر في النقد الأدبي والفلسفة المعاصرة، مؤكداً أن الإنسان كائن مؤوّل بطبعه، وأن علاقته بالعالم تقوم على إنتاج الدلالة لا مجرد اكتشافها.

خلاصة عامة

إن دراسة التيارات الفكرية لا تمنح الطالب معلومات إضافية فحسب، بل تزوّده بـ **بوصلة منهجية** تحدد له كيف يفكر، لا فقط ماذا يفكر. فكل تيار فكري يمثل طريقة خاصة في طرح الأسئلة وبناء المعرفة: فالتجريبية تعلّمه الاعتماد على الملاحظة والتجربة، والعقلانية تدريبه على الاستدلال والتحليل المنطقي، والبنوية تنبّهه إلى أهمية العلاقات والبنى، والتأويلية تعلّمه البحث عن المعنى داخل السياق. وبهذا يصبح الطالب قادراً على **اختيار المنهج المناسب للمشكلة التي يدرسها** بدل التعامل مع كل القضايا بطريقة واحدة.

ومن الناحية المنهجية، تساعد هذه التيارات على التمييز بين أنماط التفكير المختلفة. فمثلاً، عندما يدرس ظاهرة اجتماعية كالبطالة، يمكنه أن يقترب منها تجريبياً عبر جمع الإحصائيات والبيانات، أو بنوياً عبر تحليل النظام الاقتصادي، أو تأويلياً عبر فهم تجربة العاطلين ومعاني العمل لديهم. هذا التعدد لا يربكه، بل يمنحه **مرونة في التحليل** وقدرة على الإحاطة بالموضوع من زوايا متعددة، وهو ما يميّز التفكير العلمي الناضج.

أما من الناحية الفكرية، فإن الاطلاع على هذه التيارات يحرّر الطالب من النظرة الأحادية، ويجعله يدرك أن الحقيقة ليست دائماً بسيطة أو نهائية، بل هي **نتاج تفاعل بين مناهج وروى مختلفة**. فمثلاً، في الفلسفة الأخلاقية، قد يتعلم من البراغماتية أن قيمة الفعل تُقاس بنتائجه، ومن الوجودية أن المسؤولية الفردية أساسية، ومن التأويلية أن فهم الفعل يرتبط بسياقه الثقافي. هذا التنوع يعزز لديه **القدرة على النقد والحوار** بدل التعصب لرأي واحد. وتظهر أهمية هذه التيارات بشكل أوضح عند ربطها بال تخصصات:

- **في علم النفس**: تساعد السلوكية في فهم السلوك القابل للملاحظة، بينما يضيف التحليل النفسي بعداً لاشعورياً، وتقدّم الظواهرية فهماً للتجربة الذاتية.
- **في العلوم الاجتماعية**: تمكّن البنوية من تحليل الأنظمة، والوظيفية من فهم أدوار المؤسسات، والتأويلية من تفسير المعاني التي يعطيها الأفراد لأفعالهم.
- **في العلوم الطبيعية**: تعزز التجريبية أهمية الملاحظة والاختبار، بينما تبرز فلسفة العلم حدود اليقين العلمي.

• **في التخصصات التطبيقية (كالهندسة أو الاقتصاد)**: تساعد البراغماتية على اتخاذ قرارات عملية قائمة على النتائج، لا على التنظير المجرد.

بل إن أثرها يمتد إلى الحياة اليومية؛ فالطالب الذي يفهم هذه التيارات يصبح أكثر قدرة على **تحليل الأخبار، تقييم الأفكار، واتخاذ قرارات واعية**. فعندما يواجه رأياً معيناً، يستطيع أن يسأل: هل هو مبني على تجربة؟ أم على تحليل منطقي؟ أم على تأويل ثقافي؟ وهذا بحد ذاته شكل من أشكال التفكير النقدي.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر:

- الأنا والهو، سيجموند فرويد، تر : محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 04، 1998.
- الطبيعة البشرية، ألفريد أدلر، تر : عادل نجيب بشرى، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2005.
- علم النفس التحليلي عند كارل جوستاف يونج، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2019.
- الفلسفة علما صارما، إدموند هوسرل، تر : محمد رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.
- الوجودية منزع انساني، جان بول سارتر، تر : محمد نجيب - زهير المديني، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2012.

ب- المراجع :

- أسس الفلسفة الماركسية، ق. أفاناسييف، تر : عبد الرزاق الرصافي، دار الفارابي، بيروت، ط 04، 1984.
- أصول التأويلية، جورج غوسدورف، تر : فتحي انقزو، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، بيروت، 2018.
- أفلاطون رائد المثالية، مصطفى النشار، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2018.
- البنيوية فلسفة موت الانسان، روجيه غارودي، تر : جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979.
- البنيوية في الفكر الغربي المعاصر، عمر مهيل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 03، 2010.
- التأويلية، جان غروندان، تر : جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007.
- تحولات الفينومينولوجيا المعاصرة، محمد بن سباع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، 2015.
- جاك لاكان، اللغة، الخيالي، والرمزي، مجموعة مؤلفين، تر : مصطفى المسناوي، منشورات الاختلاف، 2006.
- الداروينية، مرتضى فرج، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، العراق، 2017.
- رواد المثالية في الفلسفة الغربية، عثمان أمين، دار المعارف، مصر، 1967.
- الرؤية الكونية الداروينية، عفاف الهدلق، تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، المملكة العربية السعودية، 2022.
- السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية، برنسلو مالفينوفسكي، تر : فيليب عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.
- السلوك الانساني (ثلاث نظريات في فهمه)، روبرت د. ناي، تر : أحمد اسماعيل صبح و منير فوزي، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، 2001.
- طريقة التحليل النفسي والعقيدة الفرويدية، رولان دالبيز، تر : حاظ الجمالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1983.
- عصر العقل، ستيوارت هامبشر، تر : ناظم الطحان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 03، 2001.
- العقل والعقلانية، تر : محمد سبيلا - عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2007.
- العقل والوحي، أشرف منصور، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014.

- العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، تر : محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 1997.
- الفلسفة البراجماتية (أصولها ومبادئها)، علي المرهج، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.
- الفلسفة المادية وتفكيك الانسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 02، 2007.
- الفلسفة المعاصرة في أوروبا، أ. بوشنسكي، تر : عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992.
- في تاريخ نشأة التحليل النفسي، ميكيل بورش، تر : عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017.
- الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هوسرل، يوسف سليم سلامة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007.
- الفينومينولوجيا عند هوسرل، سماح رافع محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991.
- المادية الديالكتيكية، مجموعة أساتذة سوفيات، فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، بدون تاريخ.
- المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
- المادية والمذهب التجريب، لينين، تر : فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، ط 02، بدون تاريخ.
- مذاهب علم النفس، علي زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993.
- مشكلة البنية، زكريا ابراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، 1990.
- النزعة العقلية في تفكير المعتزلة، علي فهم خشيم، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، 1967.
- نظريات علم الاجتماع، عبد العزيز الغريب، دار الزهراء، الرياض، 2012.
- هيجل، أو المثالية المطلقة، زكريا ابراهيم، مكتب مصر، القاهرة، 1910.

ت- المعاجم والقواميس باللغة العربية :

- أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، تر : خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط 02، 2001.
- لسان العرب، ابن منظور، المجلد الرابع (ر)، نشر أدب الحوزة، قم، ايران، 1405 هجري.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
- المعجم الوسيط، كجمع اللغة العربية، ج1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط 04، 2004.
- الموسوعة الفلسفية المختصرة، فؤاد كامل، جلال العشري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.

ث- المعاجم والقواميس باللغة الأجنبية :

- Le petit larousse illustré, Isabelle Jeuge-Maynard, Paris [France] , Éditions Larousse, 2007.